مركز البحوث والدراسات
في وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
بدولة قطر

كتاب الأمة

العدد / الخامس عشر بعد المائة

«الدعاء.. سبيل الحياة الطيبة»

للباحثة / الدكتورة سعاد الناصر

الدعاء .. سبيل الحياة الطيبة

تقديم
عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي جعل عبادة الصيام فرصة متألقة للفرار إلى الله والاغتسال من الذنوب والتطهر من الآثام وطريقا لبناء النفس، ووسيلة لتربية قوة الإرادة وتحكمها بضغط الشهوة وتهيئة مناخ التسامي الغريزي أو التصعيد الغريزي، وتحقيق الوقاية الشخصية، والممانعة الحضارية، فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة:١٨٣

وأعقب آيات الصيام بقوله :﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ البقرة: ١٨٦

وبذلك تكون الحكمة والمقصد من شرعة الصيام الانعتاق من الآثام وتحصيل التقوى أو حصول التقوى، على مستوى الفرد والمجتمع والدولة والأمة، ذلك أن التقوى المتحصلة من الصوم وأن شريعة الصوم تقع ضمن وسائل الإعداد والاستعداد لمواجهة ظروف الحياة وإصاباتها وضغط الشهوات ودركاتها .

والصيام بحد ذاته هو جهاد، وأي جهاد؛ إنه جهاد النفس وبنائها، وتأهيلها لرحلة الحياة بكل أبعادها، وهو الجهاد الأكبر، لأنها مرتكز التغيير والارتقاء لتكون المقدمة الأساس والقاعدة الصلبة لمشروعية مواجهة المعتدين، ومقارعة المتسلطين، والنصرة للمظلومين، لذلك جاءت فرضية الصيام سابقة لفرضية الجهاد في الإسلام، لذلك فلا غرابة في تأتي معاركنا وانتصاراتنا الكبرى في شهر رمضان.

والصيام، من بعض الوجوه، هو عكوف على النفس، وتخليصها من طغيان بعض الغرائز والشهوات، وتوفرها للمراجعة للأخطاء والتوبة منها،

والترميم للإصابات، والعزم على استئناف حياة نشيطة نظيفة، والتحضير لما يتطلبه مناخ الصوم من التوبة والمراجعة وعملية التنقية والتطهير، من دعاءٍ يعيد ما فتر من التواصل والرقابة واستشعار القرب من القوة المطلقة القادرة على الاستجابة لكل شيءٍ خيِّرٍ ومشروع .

والصلاة والسلام على إمام المتقين وسيد المجاهدين، الذي رفع يديه إلى الله في غزوة بدر ، بعد أن استكمل جميع الأسباب، طالبا من الله النصر لهذه العصابة التي تشكل أجنة الدعوة وخميرة النهوض، ذلك أن هلاكها قد يعني انتفاء العبادة في الأرض، وقد ألح في الدعاء حتى أجهد نفسه وقال له أبو بكر ، رضي الله عنه، إشفاقا: إنما تدعو سميعا؛ الذي لفت النظر إلى أهمية مناخ الصوم في تنشئة الشخصية وحمايتها من تحكم الغريزة وضغط الشهوة والترفع عن الدناءات السلوكية،

﴿ **فقال عليه الصلاة و السلام» :يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ «** ﴾ أخرجه البخاري ،كتاب النكاح

والوجاء هو تصعيد الغريزة والتسامي بها، وليس إلغاءها، وتحويل الاهتمام، واستشعار الرقابة، والشعور بالمسئولية عن استقامة السلوك .
أما في مجال الترفع عن الدنايا والدناءات والمحرمات والإصابات الشخصية

﴿ **فيقول :عليه الصلاة و السلام» مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ** ﴾ أخرجه البخاري ، كتاب الصوم،

﴿ **ويقول...» :إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ ...** ﴾ أخرجه البخاري ، كتاب الصوم،

إنها دورة في المجاهدة والترقي والتسامي، تتطلب الكثير من التواصل مع الله والدعاء له، والاستمساك بحبل الله المتين، والحرص على حسن الأداء للوصول إلى التقوى.

وبعد :

فهذا «كتاب الأمة» الخامس عشر بعد المائة:

«الدعاء.. سبيل الحياة الطيبة»

للباحثة الدكتورة سعاد الناصر ، في سلسلة «كتاب الأمة»

التي يصدرها مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر، في سعيه الدائب لبناء البصيرة، وتشكيل الوعي، وتحقيق التقوى، والارتقاء بالمسلم إلى مرحلة الوقاية الحضارية، حيث يتقي فيرتقي، ليصير في مستوى إسلامه في مجال تربية «الذات «والعلاقة مع (الآخر) محل الدعوة، ويتحقق بالبصيرة التي تمكنه من التمييز بين الأمور الملتبسة وامتلاك أهلية الفرقان، وممارسة الرشد والفلاح،

يقول تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ...**﴾ الأنفال:٢٩

ويقول :﴿ **...فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ المائدة:١٠٠ .

ذلك أننا نعتقد ـ فيما نعتقد- أن عمليات التجديد والإحياء، إضافة لما تتطلبه من توفير التخصصات في الشعب المعرفية المتعددة، التي تمكِّن من إدراك السنن والقوانين الإلهية في الأنفس والآفاق، وتحسن تسخيرها، ومغالبة قدر بقدر، الأمر الذي يتطلبه فقه النص، فقه (معرفة الوحي)، وفقه الواقع وهو الحال التي عليها الناس بكل مكوناتهم وعلاقاتهم، ومن ثم تحديد مجال الاستطاعة وما يتطلب من تكاليف وأحكام شرعية لمعاودة إخراج الأمة واسترداد فاعليتها وعافيتها، وعودة الوعي الغائب، وإبصار طريق الرشاد، ووضع المناهج والبرامج لإعادة الصياغة وتحقيق صبغة الله لأعمالنا وسعينا، تتطلب إبصار البعد الغائب ودوره في تحقيق التقوى، التي تتمثل في الوقاية النفسية والحضارية بشكل عام.

هذا البعد الغائب يتجلى، وإلى حد بعيد، بإعادة الحياة والروح للعبادات حتى تؤدي دورها في بناء الإنسان، أساس الحضارة، والعنصر الفاعل في انطلاقتها أو انطفائها، في سيادتها أو إبادتها؛ لأن العبادات بكل أنواعها وأشكالها هـي الأدوات والوسائل التربوية ذات الأهداف العملية، التي تتوافق فيها الممارسة العضوية مع العملية النفسية لتأكيد العبودية لله سبحانه وتعالى، وفي مقدمة تلك الأهداف تحقيق الانعتاق من مثبطات الدنيا، وتجاوز عثراتها، واحتمال إصاباتها، وعدم الانكسار أمام تحدياتها؛ إنـها السبيل لاقتحـام العقبة وتخليص الإرادة من الإحباط واليأس، وبناء الرغبة في الصمود والمواجهة والارتقاء،

يقول تعالى :﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ الشرح:٧-٨

إلى ربك فارغب.. هـذه الرغبة، هـي التي تمنح الإنسان الحيوية والفاعلية، وتحول دون الانتكاس والسقوط، هـي المفاعيل النفسية والاجتماعية والإنسانية لقيام الحضارة، واستمرار التوقد والتوهج والتصميم والفاعلية والمحاولة، حتى في أشد حالات المعاناة .

ولا نقصـد بالعبادة، وفي مقدمـتها الدعاء، وهو مُخُّ الْعِبَادَةِ وأرقى درجات العبودية واستشعار البشرية، تلك الصور والحركات والعادات، حيث الكثير من العبادات فقدت عطاءها ورواءها؛ لأنها تحولت إلى عـادات وحركات مفرغة من مضمونـها وحكمتها، وحسبنا أن نختبر ذلك في أنفسـنا وحـالنا قبل ممارسـة العبادة وبعدها، وإلى أي مـدى نحس بالتغيـير والتغير والارتقـاء أو العودة إلى نفس مألوفنا ومعروفنا .

ولعل من الأمور الأساس التنبه إلى أننا لا نريد بالعبادة الصور والحركات والعبادات المعزولة عن النفس ومشكلاتها والحياة وقضاياها، مكانا وزمانا وعطاءً، والتي يمكن أن يضطلع بقيادتها بعض الذين ينسحبون من الحياة ويخرجون من المجتمع، يعيشون في غرف الانتظار، وبعيدا عن واقع الأمة ومشكلاتها ومعاناتها؛ حيث وصل الحال بنا، أو بالكثير منا، إلى عدم الحس بمدلول العبادة في نفسه وأثرها التغييري في حياته ومجتمعه؛ لأنها لم توضع في الموقع الصحيح، ولم يتعامل معها كما شرعت لبناء الحياة وتغيير واقعها، ابتداءً من الفرد وانتهاءً بالأمة، لم تعد تغتنم لتعبئة الطاقات

وإثارة الفاعلية، حتى لقد وصل الأمر لدرجة صعوبة التفريق بين مسالك من يمارسها ومن يبتعد عنها أو ينكرها،

﴿ والرسول ﷺ يقول: «رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلا السَّهَرُ» ﴾ أخرجه ابن ماجه ،كتاب الصوم؛

إنها حركات تؤدى، وقد تكون مستكملة الناحية الفقهية، لكنها في الحقيقة فاقدة للروح والتأثير، ومن ثم التغيير المنشود وتحقيق الوقاية النفسية والاجتماعية .
لقد وصل الحال بنا اليوم، أو بالكثير منا، إلى أن تتحول العبادة إلى فقه فقط، نستكمل أحكام أدائها ونفتقد غايتها وحكمتها؛ لأننا لم نتعامل معها كما شرعت للتعبير عن حالة عقدية فكرية نفسية، ولم نحسن توظيفها لتعبئة الطاقات، وإنعاش الذهن، وإثارة الفاعلية، وتجديد العزيمة، وتحقيق الاطمئنان، وسكينة النفس، والإقلاع من جديد بخطوات واثقة صادقة .
ولعل أصدق مثال على ذلك ما نراه اليوم من صور ممارسة الدعاء، والدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ، كما أسلفنا، بل العبادة كلها دعاء، وأقصى حالات التذلل والعبودية، والحس بالبشرية والضعف والحاجة إلى الاستنجاد والاستمداد من القوة المطلقة القادرة على انتشالنا من كل معاناتنا والتجاوز عن كل أخطائنا وماضينا، وتحضيرنا للانطلاق بلا عوائق الحاضر وأثقال الماضي .

والدعاء في حقيقته وعلة تشريعه ليس هروبا من الحياة، ولا انسحابا من قضاياها ومشكلاتها، ولا إلغاءً لهمومها وهممها، كما قد يتوهم كثير، ليس حالة سلبية، أو تجاوزا للسنن والقوانين الإلهية وقفزا من فوقها، وإنما هو تجديد لإبصارها، والإيمان بفاعليتها واطرادها، ورجاء امتلاك القدرة على تسخيرها، والوصول إلى القدرة على مغالبة قدر بقدر .

الدعاء قوة دافعة، ودرع واقية، حالة إيجابية تربوية وقائية، يمكِّن لملكة التقوى في النفس، ويبصر بالفرقان المتولد منها وعنها

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا.. ﴾الأنفال:٢٩،

وحالة علاجية تعالج الإحباط والانكسار واليأس والعجز وانطفاء الفاعلية..
إنه تجديد للفاعلية، وشحذ للهمة، وإزالة للهموم، ومنح الثقة لتجاوز الحواجز والموانع والمعوقات، وتحقيق الاتصال المباشر مع القوة المطلقة، صاحبة العلم المطلق، والبوح لها بكل المعاناة .
إنه بوح واعتراف بالذنوب والإصابات، التي تعتري الحياة وتكدر صفوها، وندم وانكسار وتذلل أمام القادر على الإجابة، بعد استكمال الأسباب.

وقد يكون من أعظم نعم الله الأكرم، التي جاء بها الإسلام والتي حفظت كرامة الإنسان وإنسانيته وحالت دون الشر الكامن في تسلط الإنسان على الإنسان، وخلصت البشرية من شقوتها أن جعل الدعاء بين العبد وبين الرب بدون واسطة من بشر أو غيره، جعل الاعتراف بالذنوب أمام من يستر الذنوب ويعد المعترف بالعفو عنها والاستجابة لحاجة صاحبها، دون أن يفشي له سرا، بل قد يكون من مؤهلات الاستجابة الستر وعدم المجاهرة بالذنوب.

إن الدعاء اتصال مباشر في كل زمان ومكان، ولحظة وحالة مع القوة المطلقة القادرة على الاستجابة، وفي هذا ما فيه من المعاني التي وقف عندها طويلا علماء التحليل النفسي المعاصرون، الذين يعتبرون أن البوح عما يعتلج في النفس والتفريغ للأحزان والآلام هو سبيل شفاء الكثير من الأمراض النفسية، وأن حالات الضعف والإصابة النفسية تستدعي البوح الذي يحقق الراحة النفسية للمريض، ويعيده إلى الحالة السوية ويسهم بشفائه، لدرجة قد نضل معها الطريق، لعدم الوضوح في الإيمان، فنذهب إلى الإيمان بالسحر والشعوذة والخوارق والأساطير والقديسين وما إلى ذلك .

فالإنسان خطاء بطبيعة خلقه، وأخطاؤه تطارده، وتثقل كاهله، وهو بحاجة إلى الخلاص من المعاناة، لذلك فإن هذه الحالة من المعاناة استُغلت كثيرا من بعض المخلوقين، من رجال الدين والكهنة، وانحرفوا بها ولعبوا بتوجهاتها الفطرية، وكم من الضحايات سقطوا نتيجة لابتزاز الكهنة ورجال الدين في أموالهم وأعراضهم، حيث جعلت مسألة العفو والتجاوز والغفران منوطة ببشر يجلس من يريد غفران ذنوبه ويعترف أمامه على كرسي يسمى بكرسي الاعتراف، فيكشف مستوره حتى يتحول إلى رهينة بماله

وعرضه لإنسان مثله، فيكون ذلك سببا في التسلط عليه وابتزازه.
نعاود القول: بأن الإسلام جاء بأكبر نعمة على الإنسان، كانت السبب في حفظ كرامته وإنسانيته وحياته الطيبة، أن جعل الاتصال مع الله مباشرة وبدون وساطة في حالات الضعف والمعاناة، التي يكون الإنسان عندها مهيأ لقبول كل شيء، كما جعل الدعاء حصنا من السقوط، جعله علاجا من الغطرسة والتجبر .

وقد تكون الإشكالية الأخطر هي الاقتصار في الدعاء على التوجه صوب الآخرة، على أهمية المصير كمحرك وموجه لمسارات الحياة وأنشطتها باتجاه الخير، لكن المشكلة أن يقتصر الأمر على عدم الإبصار من الدعاء إلا الغفران والفعل الأخروي من رجاء الثواب، الأمر الذي عزل الدعاء شيئا فشيئا عن الحضور في شئون الدنيا وكأنما صار هناك فصل بين شئون الدنيا ومهام الاستخلاف في الأرض وشئون الآخرة بشكل عملي، ولذلك تحرك الدعاء صوب الآخرة وانسحب من الدنيا وقضاياها، فتحول من حالة إيجابية تمنح اليقين والثبات والعزيمة والنشاط والفعل المستقيم المثاب الذي يهوِّن مصائب الدنيا والتعاطي معها، إلى صورة سلبية معطلة بعيدة عن الشأن الدنيوي والانحباس عند الشأن الديني، بمفهومه الحسير، كشأن سائر الثنائيات الجدلية والخيارات، التي فرضت علينا من ثقافات الأمم السابقة وما نزال نعاني منها والتي دمرت العقل البشري تاريخيا وبقي أمامها حائرا؛ لأنه عاجز عن الاختيار والمقابلة والمعادلة بين قضايا صعبة من مثل الدنيا والآخرة، والجسم والروح، والدين والدولة، والعلوم التجريبية والعلوم الشرعية، وما إلى ذلك من الثنائيات.

فالدنيا هي معاش الإنسان والآخرة معاده، والجسم وسيلة الأداء ووعاء الروح، والروح وسيلة التسامي والتميز عن الحيوان، والدين فطرة الإنسان ووسيلة توجيه سلوكه وحمايته من السقوط، والدولة وسيلة إدارته وتحقيق مصالحه، والعلوم الشرعية مرجعيته ودليله وبوصلته إلى المعاد في الحياة، والعلوم التجريبية أدواته في الكسب والسعي والإنتاج وتحقيق المعاش وإقامة العمران.. وهكذا .
فالرؤية النصفية لمهمة الدعاء ومشروعيته انتهت بأصحابها إلى الانسحاب من الحياة، والعزوف عن الدنيا وتعاطي الأسباب وتسخير الكون، والاكتفاء برصف ألفاظ وتمتمات، ومعاودتها في كل الظروف والأحوال، ولو أدى ذلك إلى الانقطاع والعيش من إنتاج الآخرين والتحول بالإنسان من منتج

ينفع عيال الله إلى مستهلك صاحب يد سفلى، من متصدق إلى محل للصدقة.
فالدين والعبادة بكل جوانبها وأبعادها، بما في ذلك الدعاء، إنما شرعت لحسن صناعة الدنيا وفق المنهج الصحيح السليم، الذي يمنح الحياة الطيبة ويبني سكينة النفس، ويعالج أزمات الإنسان، الموصل إلى الآخرة السعيدة .

فالرسول القدوة ﷺ شرع لنا من الأدعية المأثورة لحالات الحياة المتنوعة وإصابات الإنسان المتعددة، في مجالات الطعام والشراب، والنوم والاستيقاظ، والسفر، والزواج، وحتى الوطأ والنكاح، والعجز والفقر، والهرم، والهم، ولحوق المصيبة، وأثناء هجوم النعمة واندفاع النقمة، والتوبة، والحرب والسلم، وحفظ الصحة، واستمرار التمتع بالحواس، إضافة إلى ما شرع لمعالجة الكثير من الإصابات، وما يعين على التحمل والصبر والاحتساب وامتلاك القدرة على احتمال الظلم ومقاومته والصبر عند المكاره وإعداد العدة حتى ينجلي الأمر.. وهكذا .
وبذلك نجد في الدعاء المأثور لكل حالة يعاني منها المسلم أو يعيشها أو يقدم عليها دعاءً خاصا يمثل حبل النجاة، الذي يمتد لينتشل الإنسان من همومه ومخاوفه، ويثبت قدمه على الطريق الصحيح، مهما كانت العقبات؛ وبذلك تميز المسلم بأنه إنسان إيجابي في كل الأحوال، في الضراء التي تستدعي الصبر، والسراء التي تقتضي الشكر.. وارتكازه إلى الله، القوة المطلقة القادرة على انتشاله من السقوط والارتقاء به، يمنحه التفاؤل والبشر وقوة الاحتمال، حتى في أحلك الظروف وأشد المكاره، فكل أمره له خير،

﴿ **يقول الرسول ﷺ : عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** ﴾ أخرجه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق
.
من هنا نعاود التأكيد: بأن الدعاء في الإسلام ليس رصف ألفاظ أو حفظ مفردات تجري على الألسنة أو تختزن في الذاكرة بدون تفاعل وانفعال بها، وإنما هو علاج، وتعبير عن حالة نفسية من التذلل والاستنصار، هو وسيلة شفاء، وتجديد، وإعادة ولادة للشخصية، ومحطة تعبئة للطاقات ليتابع الإنسان مسيرة الخير والاستقامة بلا هوان ولا تخاذل .

وإذا تأملنا الأدعية المأثورة بتنوعاتها، رأينا لكل دعاء حاجته البشرية، وحالته النفسية، وظروفه الحياتية، وعلى الأخص عند معرفتنا بأسباب

الورود، ومناسبات المعاناة، والمناجاة بها .
ولا بد أن نؤكد أن الدعاء في بعده الصحيح، ليس عدة الكسالى والمتواكلين، والقاعدين، وليس مقابلا للعمل والجهد واستنفاد الأسباب، كما هو حال الكثير منا اليوم، من الذي يقعدون عن طلب الرزق، ويقولون: «اللهم ارزقنا» دون تعاطي الأسباب، وهم يعلمون أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، فيصبح الدين في مثل هـذا الفهم البئيس مخدرا، بدل أن يكون مستنفرا .
لقد شُوِّه مفهوم الدعاء، وغاب البعد الحقيقي له عن حياة المسلمين، وتحول في واقعنا ليصبح بضاعة الكسالى، ووسيلة القاعدين والهاربين من الحياة، لذلك أصبح كل دعاء يصح لكل حالة، وأصبح الدعاء رصفا للألفاظ - كما أسلفنا- بعيدا عن حالة المعاناة والرجاء لخالق الأسباب، بعد الإعداد واستنفاد الأسباب .

لقد كان الرسول القدوة ﷺ إذا أراد أمرا، استفرغ وسعه في اتخاذ الأسباب وإتقانها، لدرجة قد يظن الجاهل معها أن لا صلة له بالسماء، وبعد ذلك يتضرع إلى الله، ويجأر بالدعاء، الذي يعني طلب العون والمدد، وتفعيل الأسباب من خالقها وخارقها، ليتحول الدعاء إلى علاج لما يمكن أن يحتمل من العجز والتخاذل والقلق والإحباط، وتحريض للقدرات والطاقات، وترشيد للأسباب، وحسن تسخيرها، وضبط للأهداف، وارتباط دائم بالعبودية، حتى لا يغتر الإنسان بإنجازه، وحتى لا تشكل الأسباب حاجزا سميكا يحول دون رؤية خالق الأسباب ومسيرها.

أما دعـاؤنا اليوم، في معظمـه، فهو خروج من الحياة، ودخول في الفراغ .
لذلك يبقى المطلوب دائما، التفكير بأبعاد الدعاء الغائبة، ومحاولة التربية على استردادها؛ لأنه وقود الانتصار والإنجاز، وحصن مانع من العجز والسقوط، وعلاج ناجع للتأزم والتبرم، والتأله، والاغترار بالقوة .
والكتاب الذي نقدمه، والذي قدر الله له أن يأتي بمناسبة شهر رمضان، يعتبر محاولة لتأصيل معاني هـذه العبادة الإسلامية، والتذكير بأهميتها ودورها، علها تؤتي ثمارها في النفس والمجتمع، وتحقق التلازم والارتباط والتكامل بين البعد الروحي والبعد المادي.. إنه يمثل الحس الصادق لمعادلة النفرة لبناء الحياة الطيبة، في ميادينها المتعددة، حيث تتأكد للقيام بمهمة الاستخلاف الإنساني، وخـاصة عندما يشتد فيها الكرب، ولا يبقى ملجأ ولا

منجى من الله إلا إليه .
ذلك أن الدعاء إنما شرع، والله أعلم، ضمن إطار عمليات تجديد العزيمة، وشحذ الفاعلية، وإعادة التوزان المفقود لعالم الإنسان.. هو تجدد للمسئولية، واستشعار لها، وتجديد للعهد أمام الله سبحانه وتعالى، واعتراف بالنعم، وشكر عليها، أو هو بكلمة مختصرة: انعتاق من الحال التي نحن عليها، وانفساح في الآمال والرجاء، للارتقاء في مدارج الكمال، وإتقان الأعمال، للوصول إلى الأسمى.. هو فرار إلى الله للتزود بالطاقة والعود لمعركة الحياة أزكى وأقوى .
ولعل مناخ شهر الصيام، شهر المراجعة والتوبة والفرار إلى الله يمثل الوعاء الأهم والمناخ المناسب لاستشعار قبول الدعاء، حيث تفتح أبواب الجنة وتغلق أبواب النار وتصفد الشياطين، ولا شك عندنا أن سياق مجيء قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ البقرة:١٨٦،

بعد فرضية الصيام، والرياضات التي يمنحها الصيام، ويقويها وينفخ فيها الدعاء الحيوية والروح، يعتبر مؤشرا واضحا ويلفت النظر إلى أهمية الدعاء في هذا الشهر الكريم.
ولله الأمر من قبل ومن بعد.

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان من مادة وروح، وجعل له القدرة على التمييز العقلي بين المعايير الإنسانية الضابطة للقيم والأفعال والسلوك، وبين معايرة مواقع الانفلات والتقصير في حياته وواقعه.

والصلاة والسلام على القدوة المهداة إلى البشرية، الذي اعتمد العقل وسيلة للتغيير وتزكية للنفس واستقلالا للفكر، وعلى آله وصحبه وعلينا معهم إلى يوم الدين .
إن النفس البشرية المتميزة بأبعادها المختلفة وأعماقها المعقّدة الغامضة، لا يمكن إشباعها بالوسائل والحاجات المادية وحدها، مهما غالى الإنسان في

توجهه المادي، وحرص على تلبية مطالبها الحسيَّة، وإشباع غرائزها الطبيعية؛ لأن المادة وحدها غير قادرة على ضمان تدبير حياة الإنسان، وبث الطمـأنينة في أعماقه، وهي عاجزة عن ضمان تأسيس أو الحفاظ على أي قيم أخلاقية في حياته .. «من هنا كان الشعور بإشباع جانبها الروحي ضرورة تلح على الإنسان كلما طغى الجانب المادي، واختل التوازن داخله، وأصبح الإحساس بالحاجة يتعاظم في نفسه كلما أظلمت، وتوترت العلاقة بين فطرته ومكتسبات ذاته من جهة، وبين ذاته والواقع المحيط به من جهة أخرى .

وهذه الحاجة، تتجلى واضحة حين ينغمس الإنسان في كثير من الأحداث والوقائع والأزمات التي لا يستطيع معرفة كنه أسبابها أو حلّ إشكالاتها، فيلجأ بفطرته إلى الله سبحانه، ويطلب منه العون على مواجهتها، والمساعدة على تيسير أسباب معالجتها أو تجاوزها،

يقول تعالى :﴿ **وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ...**﴾ يونس:١٢

ويقول تعالى :﴿ **وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ** ﴾ الروم:٣٣

ويقول تعالى :﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا** ﴾ الإسراء:٦٧ .

إنه أمر متغلغل في الفطرة، يتساوى فيه الناس مهما كانت اتجاهاتهم وميولاتهم، والالتجاء إلى الله تعالى كلما ضاقت السبل، واشتد الظلام، ثم الإعراض عنه تعالى ساعة الرخاء. وعلاقة الإنسان بربه علاقة ذاتية متأصلة في نفسه، ولكلِّ امرئ شعاع في قلبه يصله إلى خالقه، لأنه تعالى أوجد في طبيعة تكوين الإنسان استعدادا فطريا لمعرفته وتوحيده، فالاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري، فطرة أودعها الله

الخالق في الكينونة الإنسانية، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر، وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى . (وقد أمر الله عز وجل في الآيات السابقة الناس كافة بالدعاء، واختص المؤمنين بهذا الأمر، مما يدل على أن أي إنسان مهما بلغت درجة إيمانه وتدينه واستقامته، لا يستغني عن الدعاء، فهي بداية السير إلى الله ونهايته.

ولعل أكثر ما يبحث عنه الإنسان العاقل في زمننا المعاصر، مهما كان تدينه أو توجهه، الطمأنينة والسلام مع نفسه ومع الآخرين، والإحساس الحقيقي بالحرية والكرامة. وأعتقد أنه لن ينعم بذلك إلا إذا اكتشف ذاته أولا. ومرحلة اكتشاف الذات هي مرحلة خطيرة؛ لأنها ترسم مسار الإنسان في رحلته على الأرض، وتتطلب منه أن يوقظ نفسه من غفلتها أو جحودها، بمعنى أن يتوقف لفترة قد تطول أو تقصر عن مجاراة العالم المختل، ويحاول إعادة التوازن إليه من خلال نفسه، وإيجاد واقع عملي يحقق له ما يصبو إليه، ويضمن له الاستقرار؛ ولن يستطيع ذلك إلا إذا امتلك عقيدة صحيحة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكان وجوده فيما حوله ووظيفة هذا الوجود .

من هنا كانت البشرية منذ نشأتها تحتاج إلى من يرشدها ويوجهها إلى طريق سعادتها بتزكية النفوس وتطهير القلوب وإقرار الخير والصلاح في الأرض، واستشعار عظمة الله في كل ما يحيط بها وما يتوصل إليها.
وكانت في كل مرحلة تجنح عن الحق وتنحرف نحو الفساد والطغيان يبعث إليها بدينه الحق،

﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ...**﴾ آل عمران:١٩

عبر أنبيائه ورسله لتصحيح العقيدة، ومعالجة مختلف الأمراض الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها الموجودة في بيئاتها،

يقول تعالى :﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ...**﴾ النحل:٣٦

ويقول عز شـأنه :﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ الأنبياء:٢٥ .

وكانت آخر الرسـالات رسالة محمد ﷺ التي جاءت إلى الإنسانية كلها تؤكد الأسس الإيمانية التي جاءت بها الرسالات السابقة ,

يقول تعالى :﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...** ﴾ الشورى:١٣ .

ولهذا كان الإسلام يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها، ويدعوها إلى تصحيح عقيدتها بوحدة إيمانها بالله عز وجل،

يقول تعالى :﴿ **...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...**﴾ المائدة:٣

القدوة والنموذج للكمال والصـلاح، ثم في أصحابه، ﷺ رسول الله حيث كانت علاقاتهم بربهم علاقة متناغمة مع .رضي الله عنهم وأرضاهم الكون ومع وظيفة وجودهم

.﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ الذاريات:٥٦

وتمثل مرحلة البعثة الإسـلامية أزهى المراحل التي بلغـت فيها البشرية قمة الارتقاء الإنساني، ممثلة في
فالعبادة إذن جـوهر الوجود الإنسـاني، وهي تستلزم التوجه إلى الله تعالى بالطلب والدعاء. والدعاء لغة هو النداء ، تقول: دعوت فلانا أدعوه دعاءً، أي ناديته وطلبت إقباله، وأصـله دُعـاوٌ، إلاّ أنّ الواو لمّا جاءت بعد الألف هُمزت.

وللدعاء في القرآن الكريم وجوه عدّة، تدور حول المعنى اللغوي المتقدم، كما تقدم معاني أخرى، من هذه الوجوه قوله تعالى في معنى النداء:

﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ

آل عمران:٦١ أي ننادي

واستُعمل كلٌ من النداء والدعاء موضع الآخر في قوله تعالى:

البقرة:١٧١؛ (كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً)

﴿ ...وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا...﴾ :وقوله تعالى في معنى الطلب

فاطر:١٨.

﴿ ...فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا :وقوله تعالى في معنى القول

أي ما كان قولهم إذ جاءهم العذاب، وقوله تعالى في معنى الأعراف:٥

البقرة:٢٣ ...وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾ :الاستعانة

أي استعينوا واستغيثوا،

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا :وقوله تعالى في معنى الحثّ على الشيء

وَنَهَارًا ﴾ نوح:٥ أي حثثتهم على عبادة الله سبحانه،

﴿ البقرة:٦٩) أي ...﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ :وقوله تعالى في معنى السؤال

سله،

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ :وقوله تعالى في معنى النسبة

الأحزاب:٥) أي أنسبوهم)﴾ ...

وإضافة إلى هذه المعاني جاء الدعاء في القرآن بمعنى العبادة في قوله

﴿ الكهف:١٤ أي نعبد، ...لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا...﴾ :تعالى

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي :وفي آية أخرى جاء مرادفا للعبادة، يقول تعالى

أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾
، (غافر:٦٠)

الدُّعَاءُ هُوَ » : ﴾ وقال ..فجعل الدعاء هنا ممثلا للعبادة ومترجما لها
. ﴾ «الْعِبَادَةُ

فالدعاء هو العبادة الحقيقيَّة ذاتها، لدلالته على إقبال العبد على الله عز وجل والإعراض عمَّن سواه، و اقترانه بسائر العبادات والطاعات التي يتقرب بها العبد إلى خالقه تعالى بشكل لا يقبل الانفصال كالصلاة والصيام والحج من جهة، وكل الأعمال المحتسبة لله عز وجل من جهة أخرى، لذا كان الاستمرار في الدعاء يشكّل تأكيدا لتقرير حقيقة مهمة في نفس الإنسان المسلم، وهي فقره إلى الله، وعدم استغنائه عنه في كل الأحوال،

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ :يقول تعالى
، (فاطر:١٥)

وتنمية الإحساس بالفقر إلى الله والحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه غايات تعبدية يستهدفها الدين بذاتها، ويلزم الإنسان اتباعها في كل عباداته،

. ﴾ الأعراف:٥٥ ...﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً :يقول تعالى

من هنا كان الدعاء عبادة حيّة متحركة، رغم خضوعها لزمان ومكان ولأفعال خاصة وألفاظ محددة، إلا أن الإنسان ينطلق فيها حرا ,معينين يتطلع لعبودية الله وحده لا شريك له، يذوق حلاوة قربه، والتنعم بمعيته

يمارسها في جميع حالاته؛ لأنها تترجم وطاعته. وكان رسول الله عمق الصلة بين العبد وبارئه، ويعكس حالة الافتقار المتأصلة في ذاته إلى الله سبحانه، مع إحساسه العميق بالحاجة إليه والرغبة فيما عنده، فكانت مصاحبة لكل عمل يقوم به، من أبسط الأشياء إلى أعظمها التي غيرت وجه التاريخ، وأوجدت خير أمة أُخرجت للناس، ﴾ وقد روى البخاري عن

يذكر الله كل السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان النبى
. ﴾ أحيانه

إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، ﷺ فضرورته » :يقول ابن القيم وحسب قربه منه ومنزلته عنده. وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الدعاء، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاها، وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه عز : وبسبب افتقاره إليه عز وجل، كان من دعائه«وجل

﴿ اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لا إِلَهَ إلا أَنْتَ» ﴾.

من هنا كان اتباع سنة رسول الله، وتعلم الدعاء منه، مع الإيمان والوثوق بالإجابة، بعد العمل على تهيئة الظروف والأخذ بالأسباب المادية، عامل تيسير مهم يجب استثماره لتيسير حياة الإنسان، وجعلها مليئة بالرضى والطمأنينة والسلام والتقدم

، ﴿ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ ، رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ.. قَالَ : «لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» ﴾.

والدعاء نوعان

دعاء المسألة، أي طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر أو توبة أو استغفار وغيرها، ودعاء التعبد، أي سائر القربات من ذكر وتلاوة وصلاة ونسك ومختلف الطاعات.

قال الإمام ابن القيم : «والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه، ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وله مع الدعاء ثلاث مقامات
:
أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه

.
أن يكون أخفَّ من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد ولكن 2-
يخففه، وإن كان ضعيفا

.
. «أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه -3

والإنسان الذي وصل إلى مستوى تذوق لذة الإيمان وسما بالعبادات، لا
يمكن أن يقصّر أبدا في الدعاء، ويدرك أن العبادات هي غاية الموجودات
.وسبب خلقها، لذا يعطيه أهمية قصوى، كي ينعكس على حياته
وللدعاء أهداف عديدة يمكن أن يصل إليها المؤمن، منها حفظ النفس
وتزكيتها،

، (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد:٢٨...﴿ :يقول تعالى
فهناك أمراض تفتك بالبشرية، وتُعَرض حضارتها للانهيار، وتصيب
منها الإلحاد والتطرف والعبثية والعدمية، لكن الإيمان يظل ,أفرادها بالوهن
ينبض في أعماق الفطرة الإنسانية رغم بعدها عن الحق والعدل. وربما هذه
الحقيقة ترقد في أعماق كل إنسان، مهما كانت قناعاته أو توجهاته، وإن لم
يعترف بها، لذا يلجأ إلى الله تعالى كلما تعبت نفسه، واشتاقت لفطرتها،
وللتطهر من أردانها. وتكون البداية ضيقها من السيئات التي تنغمس فيها.

وإذا أراد الله بعبده خيرا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار
والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجوء إليه ودوام التضرع إليه
والدعاء والتقرب إليه، بما أمكن من الحسنات، ما تكون تلك السيئة به سبب
.رحمته
ويأتي الدعاء لشحن الإنسان بدلالات القرب والمعية ما يعود نفسه البشرية
على الارتقاء نحو مدارج السمو والكمال الإنساني، وتطبيعها بممارسات
وسلوكيات نابعة من أصول حضارتنا، وطبيعة وجودنا على وجه هذه
الأرض. فإصلاح النفس وتزكيبها وتطهيرها بالدعاء من أَجَلِّ الأهداف التي
يسعى إليها الداعي؛ لأنه يدرك أن أي خلل يصيبه، مهما كانت طبيعته،
يكون مصدره من نفسه، ويكون ذلك تنبيها للرجوع إلى الله، واكتشاف
مصدر الداء والخطأ. وحين حلت الهزيمة بالمسلمين في أحد

وقال بعض الصحابة

: «كيف نُهزم ونحن جند الله» جاء الجواب من الله تعالى آيات بينات
:لمن يسمع ويتعظ
.(آل عمران:١٦٥)﴿ ...قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ...﴾

.إن الهزيمة وقعت بسبب خلل داخلي على المسلمين إصلاحه ليأتي النصر
ولا يغتر المسلم بسريان الفساد في نفسه وفي مجتمعه، فيعتقد أنه لا سبيل للإصلاح وللرجوع، فذلك إحباط ويأس من رحمة الله وعفوه، وإنما ..عليه أن يبدأ بإصلاح نفسه متوكلا على الله تعالى، ويلجأ إلى التوبة
والتوبة عبادة مرتبطة بالدعاء، لا بد منها كي يستطيع المذنب نسج جسور الطاعة بينه وبين ربه واللجوء إليه ودعائه
.

وأركان التوبة

:الندم الصادق النابع من القلب، ثم العزم الأكيد على ترك الذنوب والمعاصي، ولما كان الإنسان ضعيفا فإنه ربما يعود إلى ارتكاب الذنوب، لكن باب التوبة الصادقة يظل مفتوحا,

يقول تعالى :﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ الإسراء:٢٥ .

والركن الثالث الإقلاع عن الذنوب والمعاصي؛ لأن التوبة تقترن بالإيمان والعمل الصالح ,

يقول تعالى :﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ...﴾ الفرقان:٧٠،

ومجانبة الشيطان :﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ...﴾ الحجر:٤٢،
ويقول تعالى على لسان إبليس :﴿ ...فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾
﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ص:٨٢-٨٣

والتوبة الدائمة والاستغفار يفسحان المجال للمسلم كي يشكر نعم الله عليه، ويصبر على المحن التي يبتليه بها ويلجأ إلى الدعاء يتزود منه ما

يعينه على الثبات في كل ذلك.
ومن أهداف الدعاء تبليغ الحقيقة الإسلامية وإذكاء جذوتها في النفوس المتعطشة إلى السلام والاطمئنان والأمان،

يقول تعالى :﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ الحديد:١٦.

ومن الأهداف المهمة أيضا التزود بزاد سهل في متناول الجميع، ورغم سهولته إلا أنه عند الله عظيم، ولا يكاد يلتفت إليه المسلم المعاصر إلا إذا كان في ورطة أو مصيبة، لكن إذا علم الإنسان أنه مجرد ضيف زائر للدنيا سوف يرحل عنها قريبا، خالي الوفاض إلا من زاد معنوي يتحصله من أعماله المادية والمعنوية، ليرجع كل شيء إلى أصله، الجسد إلى التراب، والروح إلى بارئها عز وجل ,سيدرك أن عليه أن يتزود لرحلته إلى الله تعالى، وطبيعة الزاد يوصله إلى نتيجته. فمن كانت طريقه إلى الله وجده موفيا حقه، ومن كانت طريقه غير ذلك وضل سبيله وجد الله أيضا يوفي له حسابه غير منقوص، ودخل في زمرة من ﴿ ...أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ مريم:٥٩،
وكانت النهاية الأبدية لمن على شاكلته أنهم ﴿ ...يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ محمد:١٢.

﴿ ولذلك ينادي الله عباده المؤمنين :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ المنافقون:٩-١٠،

وتتميز طبيعة زاد المؤمن بكل ما فيه رضى الله ورضوانه حسب الاستطاعة،
يقول تعالى :﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ، وهو تعالى عليم بمجهود المؤمن في التزود، يقول :﴿ ...وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾النساء:٣٢ .

وإذا كان زاد المرتحل إلى الله محفوف بالفضل والتقوى، فإن على المؤمن المتزود أن يزيد منهما، ويسعى إلى تغيير ما يصبح عادة في عباداته، وما يبعده عن الصراط المستقيم.

وبما أن الأمة في أمس الحاجة إلى تغيير يتصاعد من أعماقها، والتوجه إلى مخاطبة فطرة الإنسان وعقله وذوقه، خاصة وأن حركات التاريخ وسننه المتتابعة أثبتت أن الابتعاد عن الدين، فكرا وسلوكا، هو أساس جميع ألوان الاضطراب والانحراف الفردي والاجتماعي، ابتداءً بفقدان الصحة النفسية والروحية، وانتهاءً بالممارسات المنحرفة، فإن الدعاء عنصر فاعل في إعادة بناء شخصية الإنسان المسلم، وفي تنمية قدرات مواجهاته لمختلف التحديات والأزمات، ووقف نزيف الألم والقلق النابع من داخله، من أجل التركيز على قضايا مصيرية تمس الفرد والأمة، وعاملا أساسيا في تفجير طاقاته، وإشاعة روح النشاط في نفسه كي يقوم بواجباته بدلا من كونه (أي الدعاء) وسيلة للاتكالية والتجميد والخمول، كما أصبح عند سواد الأمة.
والبناء الداخلي لأي تغيير هو من أدق الأعمال وأصعبها، لأن الواقع الخارجي ليس سوى انعكاس للتكوين والتعبئة الداخلية، فبقدر ما يكون الإنسان متماسكاً ومطمئناً داخلياً وواضحاً في رؤاه وتصوراته، بقدر ما يكون أقدر على تحقيق أهدافه داخل الأمة، وأقدر على التزود بزاد المرتحل إلى الله تعالى.

وقد وردت عن رسول الله (دعوات وأذكار خاصة، تُعد زادًا سائغًا، ناجى بها ربه في أوقات وأحوال ومناسبات شتى، يشع منها نور النبوة، ويلوح فيها عمق عبوديته وقربه من الله عز وجل .وقد أُلفت فيها كتب خاصة، منذ عهد الإمام النسائي، وتلميذه ابن السني، ثم كتاب الأذكار

للنووي، والكلم الطيب لابن تيمية، والوابل الصيب لابن القيم، والحصن الحصين للجزري، وتحفة الذاكرين للشوكاني، وغيرهم. وفي عصرنا ألف مجموعة من العلماء عددًا من المصنفات في هذا المجال المتجدد، منهم الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، في كتابه «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء»

عرض فيه كثيراً من الدعوات والأذكار النبوية بقلم الأديب، وروح الداعية، وقلب المؤمن، وحرارة المحب لله تعالى ولرسوله (. وما زال هذا الموضوع يحتاج إلى إغناء وإضافة بقدر حاجتنا وافتقارنا إلى الله عز وجل، وليس هذا البحث سوى فيض رغبة تأصلت في نفسي من تذوق لذة اللحظات التي أخلو بها مع كلمات الدعاء القرآني والنبوي الخالدة، وددت أن أهديها إلى أمتي،

عسى خالقنا وبارئنا سبحانه وتعالى أن يقبلها مني ويجعلني ألقاه وهو راض عني، آمين.

أثر الدعاء في إعادة بناء الإنسان

إن حياة الإنسان المسلم في حاجة، أكثر من أي وقت مضى، إلى إعادة صياغة شخصيته عمليا وفكريا وتوجيهيا وفق تربية إيمانية متكاملة، بما يلائم كينونة وجوده وطبيعة مهمته الإنسانية في الأرض، وذلك من أجل تجاوز واقعها المليء بالإحباطات والتناقضات والإكراهات والإغراءات أيضا، المادية والمعنوية، التي تغرقها أكثر في مستنقعات التبعية والتقليد والخرافة والاستلاب والتغريب واستعادة الشخصية الفاعلة المسترشدة بهدي الإسلام، الذي أحدث انقلابا شاملا في الحياة البشرية كلها، سواء على مستوى الممارسة والسلوك أو على مستوى الفكر والتصور، حيث استطاع الإنسان في ظله أن يتحرر من كل ما يعوقه عن الانطلاق في تحقيق خلافة اللّه في الأرض وإعمارها بالخير والنماء، وذلك من أجل ربط الصلة بمقومات رقينا التاريخي واستعادة دورنا في الحياة باستثمار طاقات وقدرات تُهدر في مجالات تافهة وسلبية وإعادة النافرين والمستلبين إلى دائرة الوجود الحضاري الفاعل. وشحذ الهمم في أفراد هذه الأمة يتم عبر الفهم الصحيح لوظيفة الإنسان ومهمته، لتنظيم سير الحياة وتعقيداتها،

وإزالة بصمات عصور التخلف والانحطاط، التي تضمنت إقصاء
مقتضيات النهوض والتنمية والرقي عن اهتمامات الدين، وتهميش كامل
لإرادة الأمة ومصالحها الآنية والمستقبلية. وهذا الفهم يعيد المكانة لكثير من
الممارسات التعبدية التي قد نمارسها في غياب شبه مطلق عن تفعيلها في
.حياتنا، والتي من ضمنها الدعاء
إن ذكر الإنسان لله سبحانه ودعاءه لا يجب أن يكون إحساسا عائما، أو
عملا مقطوع الصلة والجذور بالسلوك والمواقف العملية للإنسان كما هو
الشأن في واقعنا المعاصر، بل من المفروض أن يكون للدعاء آثاره
ومردوداته الإيجابية البناءة على نفسية الفرد وعلاقاته ومواقفه، ومن ثم
على المجتمع بصفة عامة، وإلا فإنه يفقد معناه وهدفه وغايته عندما تتحول
مناجاة الله عز وجل إلى عبارات ميّتة جوفاء، فارغة من الإحساس
الصادق، الذي يعكس عمق التفاعل والاتصال به تعالى،

وصفاء التأمل في النفس والكون، وسلامة المواقف والعلاقات

.
وقد يُعتبر الحديث عن الدعاء من أنواع الهروب من الواقع في وقت
يستدعي التركيز على قضايا مصيرية تمس الفرد والأمة، لكن إذا نظرنا
إليه من زاوية ضرورة
معرفة ذواتنا وتنمية قدرات مواجهاتنا لمختلف التحديات والأزمات،
ووقف نزيف الألم والقلق النابع من داخلنا، فإن الأمر يصبح أكثر إلحاحا
كي نهتم كما يجب بقضايانا المصيرية، فردية كانت أم جماعية، لذا فإن
البحث عن مقومات تكون أساسا

لتربية إيمانية تتكامل فيها أشواق الروح مع متطلبات الجسد تصبح
ضرورية وملحة في وقت وصل فيها أفراد الأمة إلى درجات من التخبط
والتمييع والسلبية والغثائية، ولم يعد أكثرهم يحس باحترام لذاته الإنسانية
التي كرمها الله،

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾
.(الإسراء:٧٠)

من هذه المقومات التي تجعل المسلم يعيد تشكيل شخصيته، ويُحملها مسئولية تصرفه دون شطط أو غلو، ويكون الدعاء جزءا لازما فيها:

معرفة الله تعالى - 1

دون الدخول في عمق التفاصيل الفكرية، يمكن أن نقترب من تبسيط هذه المعرفة كي نعي قيمتها وأثرها في العقل والوجدان الإنساني، وتأثيرها في إعادة بناء شخصية الإنسان.
تستلزم معرفة الله عز شأنه التفكر في مصدر الوجود أولا ثم معرفة الهدف من خلق الإنسان ثانيا

أ- التفكر في مصدر الوجود

إن أي إنسان سوي الفطرة يدرك بعقله أنه لم يأت من العدم، كما يدرك بوجدانه أنه لم يوجد نفسه في هذا العالم أو وجده صدفة، وأنه لا بد من خالق خلقه وخلق الكون من حوله؛ وفي القرآن الكريم دعوة مستمرة للتفكر في مصدر الوجود,
يقول تعالى :﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾)الذاريات:٢٠-٢١(
وبسط لقضية المعرفة بالله والإيمان بوحدانيته من خلال عرض لمظاهر الحياة بكل ما فيها من حيوية واستمرار وقوة
,
﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ :يقول تعالى وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾
البقرة:١٦,
ويقول في آية أخرى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنعام

وتمثل هذه الآيات نموذجا لكثير من الخطاب القرآني الذي يدعو العقل الإنساني إلى التفكر والتدبر والتعقل لكل ما في الكون من ظواهر وموجودات تتحرك وتتجدد، وتقدم مادة حية مستمرة تنبئ عن الخالق الأعظم الذي خلقها وأوجدها، وتؤكد أن العلم وطريقه يوصلان الإنسان إلى اكتشاف الخالق ومعرفته من خلال اكتشـاف خلقه في الكون. وإذا لم تسمُ العلوم الكونية والمادية بالإنسان في مدارج الإنسانية الحقة، وترفعه إلى درجات المعرفة بالله تعالى والتيقن بجلاله وعظمته، وتبصره بتجلياته

سبحانه في الكون والنفس تصبح عبثا يفسد حياة الطمأنينة والسلام، وعبثا يهوي بالبشرية إلى مراتب حياة البهيمة والأنعام
,
﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا :يقول تعالى
الصَّالِحَاتِ... التين:٥-٦ ﴾,

:ليعيش الإنسان في ظلمات الظلم والجهل، يقول تعالى عن هذا الإنسان
إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ الأحزاب:٧٢...﴿

وكلما ازداد علما ومعرفة وتبصرا كلما ازدادت معرفته بالله وخشيته منه وامتثاله لأوامره,
﴿ فاطر:٢٨ ...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ :يقول تعالى

﴿ :إلا الذين لا يريدون الهداية، فيصبحون كما أخبر عنهم عز وجل
لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ ...
﴿ الأعراف:١٧٩؛ ...بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

لأن العلم وخاصة الذي تمتد جذوره في عمق الحياة يكتشف الصلة بين الكون وما يوجد فيه من خلق وبين الله تعالى، ويصل إلى المعرفة الحقة به .تعالى، والله تعالى جعل في كل شيء دليلا عليه ما على الإنسان إلا اكتشافه وإحصاء أولي للآيات، التي تُعرِّف الله من خلال كونه وخلقه، تدفع الإنسان إلى تمثُّل دلالات ﴿ اقْرَأْ ﴾ التي فصلت بين العلم وبين الجهل والخرافة، .بين الجمود والاتباع وبين التطوير والإبداع
والناظر لحال الأمة يدرك أنها ابتعدت منذ قرون عن هذه الدعوة الربانية لفعل القراءة، وممارستها علما ومعرفة وسلوكا إيمانيا بالخالق العليم، وأن حقيقة الدعوات المتكررة في القرآن الكريم للنظر في الكون والإنسان والآفاق والتاريخ لم تعد تنبض في وجداننا وعقولنا قوية حية تحرك سلوكياتنا وتتجه بنا نحو تربية الجناحين، اللتين طارتا بهما الحضارة الإسلامية نحو قيادة البشرية، وهما جناح العلم وجناح العمل الصالح.
وطبيعي أنّ تقبّل هذا المفهوم يحتاج إلى وعي إنساني عميق للكون

والطبيعة، وفهم عقائدي لكيفية سير الحوادث والوقائع على مسرح الحياة للتعرّف على أثر القوّة والإرادة الإلهية في هذا العالم.
من هنا كان تفعيل الإيمان في حياة كل مسلم قضية أساسية، تخرج الدين من كونه مسألة شخصية محدودة، إلى اعتباره منهجًا متكاملًا يتغلغل في نسيج الممارسات الإنسانية المتعددة، فتصبح مدار حياة الإنسان لا تخرج عن دائرة قوله ﷺ: ﴿ ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ طَعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ يُحِبُّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ؛ وَمَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا؛ وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾

وهذا الطعم الإيماني ينبع عنه سلوك عملي وأخلاقي يتميز به المسلم عن غيره. ولن يتم تذوقه وتفعيله إلا بالحب الرباني، وربطه بأصل الانبعاث الإسلامي في قوله ﷺ: ﴿ إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ ﴾، وبالاستجابة لعوامل الإحياء، يقول تعالى: ﴿ ...اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ... ﴾ الأنفال:٢٤.
والاستجابة للحياة الصحيحة المستقيمة تقوى أو تفتر أو تضمحل حسب سعة التعرف إلى الله تعالى أو ضيقه. وقد تكون هذه المعرفة فطرية، لكنها تنمو بالتربية والتوجيه، ومجاهدة النفس على التخلق بأخلاق الإسلام.
وبدون تفعيل الإيمان الحق في حياة الأمة لينسحب على واقعها فإنها تجنح عن الصواب، ولن يفيدها آنذاك أي نظام أو غيره لتغييرها.

ومن شأن هذه المعرفة أن تساهم في بناء شخصية مؤمنة بالله عز وجل، مرتبطة به في كل شأن من شئونها؛ لأنها تعي وتدرك أن كل شيء بيد الله، يتصرف فيه كيفما يشاء، فهو القوي القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير الذي يتصرف في كونه وخلقه من خلال سنن وقوانين تضبط التوازن في حركة الوجود، وهو الرب الرحمن الرحيم الكريم المحسن المشع بالأمن والأمان مهما تخبط الإنسان في مزالق الفوضى أو ابتلاءات الحياة، فيقف أمامها في هدوء عقلي وسكينة نفسية؛ لأنه يوقن أن

﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ :كل شيء خاضع للتخطيط الإلهي
القمر:٤٩،

وأن هذه الشخصية مدعوة لأداء مهمتها في الحياة حسب المنهاج الذي ارتضاه ربها لها. ومن ثم تكون معرفة الله تعالى وتوحيده قاعدة البناء العقائدي والفكري للتصور الإسلامي، يرسو عليه فهم خاص لكل العبادات، ومن ضمنها الدعاء.

كما تكون معرفته سبحانه مفتاح الحب الإلهي. وتجربة الحب الإلهي تجربة إنسانية رائعة، لا يذوق لذتها ومتعتها ولا يدرك أبعادها ويعي مضامينها سوى من توصل حقا لمعرفة الله، وعاش مشاعر الاستغراق والشوق الإلهي العميق، وانطلقت ذاته من أسوار أنانيتها وغرورها وجحودها، تبحث عن مرسى مفعم بالأمن والطمأنينة، تحقق فيه حالات الحضور والانشراح بذكر الله والثناء عليه وتعظيمه ودعائه ومناجاته، وتتطلع إلى التنعم بظل الله

لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ » : ﷺ تعالى، ﴿ يقول النبي
وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالِي؟ » ﷺ :، ﴿ ويقول
فمن يعرف الله تعالى تتجلى . ﴾ «الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلِّي
أمامه عظمة صفاته، وجمال تجلياته في الكون، فيبدأ عقله ووجدانه يتذوق حلاوة القرب والمعية، ويعيش العلاقة الطبيعية الصحيحة مع خالقه، :يقول تعالى

﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴾ **البقرة:١٥٢**؛

حب متبادل بين الإنسان وربه، وذكر مستمر للنعم التي متعه بها خالقه
.

ب- الهدف من خلق الإنسان

يؤكد الله عز وجل أن الهدف من الوجود الإنساني هو العبادة، بمفهومها الشامل للحياة، ولمختلف النشاط الذي يستغرق هذه الحياة

,

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات:٥٦ :يقول تعالى

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ :وهو كذلك مفهوم قوله جل شأنه
﴾ البينة:٥ ...الدِّينَ

إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ...﴿ :وواضح منطوق قوله تعالى
ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
﴾ يوسف:٤٠ ...

اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من ,والعبادة، كما يقول ابن تيمية
الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، وهو الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له
والمسلم مدعو إلى تجديد ميثاق العبودية لله مرات عديدة في .بالاستكانة
فلا عبادة ,﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ :اليوم، وذلك في بداية كل صلاة
إلا لله ولا استعانة إلا به سبحانه،
والعبادة هنا بمعنى العبودية المطلقة لله، المتعالية والمستغنية عن كل
ما سواه، كي يصل الإنسان إلى مطلق التحرر من كل العبوديات، مهما
كانت، ويمارس حقيقة الاستخلاف، يقول تعالى مبينا طبيعة وجود هذا
:الإنسان في الأرض
.﴾ البقرة:٣٠ ...﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً

والخلافة تستلزم ألوانا من النشاط الحيوي والمستمر في عمارة
الأرض، واستكشاف قواها وطاقاتها من أجل استخدامها في تنمية أساليب
الحياة وترقيتها وتطويرها لخدمة الإنسان المستخلف فيها ومن ثم يتجلى
أن معنى العبادة، التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة
الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة
في مدلول العبادة قطعا، وأن حقيقة العبادة

تتمثل في أمرين رئيسيين

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي: استقرار الشعور على
أن هناك عبدا وربا، عبدا يَعبد وربا يُعبد، وأن ليس وراء ذلك شيء، وأن

ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار، رب واحد والكل له عبيد.
والثانى: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير وبكل حركة في الجوارح وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله وحين يدرك الإنسان معنى العبودية يعي عن تبصّر أن الله تعالى، كما أخبر عن نفس ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ ... كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (المؤمنون:٨٨)
وبذلك يصبح الإيمان قوة عظمى يستعلي بها المؤمن على كل قوى الأرض، وكل شهوات الدنيا، لا يتطلع لأحد غيره، ولا يتعبد لأحد سواه، فلا يخاف إلا من الله، ولا يذل إلا لله، ولا يطلب إلا من الله، ولا يأمل إلا في الله، ولا يتوكل إلا على الله، ويتحرر قلبه وروحه من كل أشكال وأنواع العبوديات.
هذه الصلة العميقة والواعية، التي تنشأ بين الإنسان وبين ربه تجعله يتطلع خفافا إليه تعالى ويستشعر وجوده معه في كل لحظة من لحظات حياته، فيسعى إلى اكتشاف حقائق المعرفة الربانية وتجلية عظمة الصفات وجمال الذات الإلهية, وتمتلئ النفس بحقيقة وجوده تعالى، وتتطلع إلى تذوق لذة قربه في كل لحظة من لحظات حياتها:

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾
آل عمران:١٩١,
ويصبح ذكر المؤمن ودعاؤه تعبيرا صادقا عن ارتباطه وتعلقه بمولاه سبحانه وشوقه إليه، كما يصبح دليل الافتقار إليه تعالى دليل رجوع وتوبة يتيحها الله لعبده كلما زاغ عن جادة الصواب، أو ابتعد عن المنهج القويم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف:٢٠١
وإذا بلغ الإنسان درجة التبصر والإقرار بأن الله خالق كل شيء ومالكه، وتجاوز الدعاء اللفظ واللسان، وتناغم الوجدان مع دلالات الكلمات أدرك أن العزة منه سبحانه والذل من سواه، وأن انشغاله بهموم الدنيا وصغائرها، مهما عظمت في عينيه، وتألمه من أجلها

.تفاهة وصغار، وأدرك أن التربية الربانية تحدُّ من استعلاء العبد وطغيانه

من هنا ندرك أهمية ابتعاد الإنسان، بين الحين والآخر عن صخب الحياة ومشكلاتها للاختلاء بالله عز وجل, من أجل التأمل المثمر في ملكوته وملكه، وحمد نعمه، والغوص في أعماق النفس وتنظيم خلجاتها، والتفكير الهادئ في تجاربه الحياتية، وإعادة تقييم مواقفه وأفكاره وسلوكياته، والاستغفار منه تعالى عن ذنوبه وأخطائه, والاستعانة به من أجل شحن النفس بطاقات إيجابية تحفزها على الانطلاق في طريق الاستقامة والخير والحق والعدل، بدل التقوقع في السلبية والانهزامية, وتثبيت منظومة القيم والأخلاقيات، وتحويلها إلى ممارسات سلوكية، وعبادات حية، بدل التشتت .والعادات الجامدة والشعارات الفارغة

هذا التوقف، لا يعني الابتعاد عن الممارسة الحياتية، وإنما يعني مداومة استصحاب الله عز وجل كل حين، خاصة إذا وعى الإنسان جيدا أن أي عمل يقوم به، مهما كان، إذا ابتغى به وجه الله فهو عبادة، الأمر الذي يؤكد أن المؤمن لا يقف عند الحد التعبدي، وإنما تترشح منه آثار أخلاقية تساهم في تصحيح مساره، واقتلاع جذور الفساد الأخلاقي من أعماقه، فيصبح .آنذاك يعبد اللَّهَ كأنَه يراه، فإن لم يكن يراه فإنَّه سبحانه يراه
وإحساس المسلم أن الله بكل شيء محيط، وبكل شيء بصير, وعلى كل شيء شهيد، وأنه يجير ولا يُجار عليه، ويحكم فلا معقب لحكمه..إلخ، هذا الإحساس يترك أثره على قوله وفعله، وجده وهزله، ورضاه وغضبه، أو ، وبذلك يكون الإيمان «بإيجاز يخط له خطا واضحا في شئون الحياة كلها «قدرة على الحياة في جميع دروبها، قدرة علمية ومادية يصحبها تطويع كل «شيء لإرضاء الله وابتغاء وجهه

2- الارتقاء السلوكي والأخلاقي

يشتمل الدين الإسلامي على عنصرين متكاملين:
العقيدة والمنهج ﴿ **...لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ...**﴾ المائدة:٤٨ .

وقد بلـغ هـذان العنصران من الكمال بمقدار ما أراد الله لدينه من الكمال والاستمرار والشمول،

يقول تعالى :﴿ **...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...**﴾ المائدة:٣،

ويقول تعالى :﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ...**﴾ آل عمران:١٠٣

والاعتصام بالدين هـو حركة متكاملة بين الباطن والظاهر، بين العقيدة والسلوك، بين القلب والعقل، بين الفرد والجماعة (...) فهو حركة تستهدف إنشاء أمة وإنشاء ثقافة، ليجد الإنسان المسلم في ظل الحضارة والثقافة والدولة الإسلامية المجال الحيوي الذي يتحرك فيه.

﴿ **وحين يقول ﷺ : إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ** ﴾ ،

فإنه يقرر حقيقة أن الشريعةَ الإسلاميةَ تنبع وتنبثق من عقيدة أساسها الأخلاق، وأن هـذه الأخلاق هـي العامل الأهم في استمرارية شعلة الإيمان في حياة كل مسلم، وجعلها المحك الذي يجعل التصور العقدي ينـزل على أرض الواقع ,ويعكسه بشكل تطبيقي متكامل في كل الممارسات الإنسانية المتعددة، لتكون حياة الإنسان متوازنة بين التصور والسلوك، تستجيب للآيات القرآنية الكثيرة المتعلقة بموضوع الأخـلاق وربطها بالسلوك، كما تستجيب لحثه ﷺ على التخلق بالأخلاق الحسنة في مثل قوله :﴿ اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ﴾ ،

وتتنـافس على تبوأ مكانتها قرب رسول الله يوم القيامة، ﴿ **يقول** ﷺ **: إِنَّ من أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ**

وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ.. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ ﴾

ومن الاستجابة والتنافس ينبع سلوك عملي وأخلاقي يتميز به المسلم عن غيره، ولذلك يجب أن تكون معاملات وممارسات وسلوكيات المسلم قائمة على منهج أخلاقي، وعلى عدم الفصل بين الحياة المادية والروحية,

يقول تعالى :﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ...**﴾ الحديد:٣
كي تكون الحياة في المجتمعات الإسلامية منضبطة ومتوازنة، وتعيش حالات صحية هادئة وكريمة .

ونظرة إلى السلم الأخلاقي في التصور الإسلامي تكشف أن الأخلاق قابلة للتقويم والاكتساب بالتربية والمجاهدة، وأن لدى كل إنسان أهلية للتقويم واستعداد لاكتساب الجيد من الأخلاق والتخلي عن القبيح منها، وإن كان الناس متفاوتين في مقدار أهليتهم واستعدادهم لهذا الأمر . «لذلك فإن المسلم مطالب دائما بوضع نفسه موضع تساؤل عن مدى تخلقه، وقياس أخلاقه بدرجات قوة الإيمان فيها (أي في نفسه)؛ لأن الأخلاق موصولة بالإيمان ومعاني التقوى، وهذه الصلة تشتد كلما قوي الإيمان في النفس، ورسخت العقيدة فيها، مما يجعل أخلاق المسلم الطيبة ثابتة لا تزول ولا تضعف؛ لأنها موصولة بالقوي العزيز، وتجد مادة بقائها واستمرارها وصلاحها من فيضه الذي لا ينضب ،

يقول تعالى :﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴾ الشمس:٩ ,
ولا شيء مثل العبادات يسهل تزكية النفس وقبول الأخلاق الحسنة والنفور من السيئة,

يقول تعالى :﴿ **...وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ...** ﴾ العنكبوت:٤٥ ,

ويقول في آية أخرى :﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ...
﴾ التوبة:١٠٣ .

وليست العلاقة مع الله ساعة مناجاة في الصباح أو المساء ينطلق المرء بعدها في إرجاء الدنيا يفعل ما يريد،كلا هذا تدين مغشوش.. الدين الحق أن يرقب المرء ربه حيثما كان، وأن يقيّد مسالكه بأوامره ونواهيه، وأن يشعر بضعفه البشري فيستعين بربه في كل ما يعتريه ، أي لا يعتقد المسلم أنه بتأديته الصلوات الخمس قد بلغ ذروة الكمال، دون أن يحاول تعديل سلوكه وإصلاح نفسه وبلوغ درجات السمو الإخلاقي؛ لأن هذا اعتقاد فاسد لا يحقق مقاصد العبادات.
وإذا كانت الصلاة والزكاة وسائر العبادات العملية تزكي النفس وتطهرها وتكسبها عمق التخلق بالأخلاق الحسنة، فإن الدعاء المصاحب لهذه العبادات أو غيرها بالإضافة إلى ذلك، يزيد من انخفاض مستويات التوتر والقلق، ويساعد على صفاء الذهن والقدرة على التركيز وتقوية الإرادة، والبعد عن وساوس النفس والشيطان، كما أنه تدريب عملي وتطبيقي سهل للسمو بالنفس في مدارج الأخلاق،

والارتقاء بالروح لتكون أهلا لمصاحبة ﴿ رسول الله ﷺ الذي كان من دعائه، عليه الصلاة و السلام » :اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي «
﴾ ,

كما كان من توجيهاته القيمة في مجال الارتقاء السلوكي والأخلاقي ﴿

قوله » : ﷺ أَلا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ؛ وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ؛ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ؛ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ ﴾ .

والقيم الأخلاقية في الإسلام لا تتغير ولا تتطور تبعا للظروف الاجتماعية أو السياسية والأحوال الاقتصادية، بل هي حواجز وحدود ثابتة متينة ضد الفوضى والظلم والشر والفساد،

يقول الله تعالى :﴿ ...تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ...﴾ البقرة:٢٢٩،

ولذلك فالإنسان المؤمن يسعى دائما إلى الثبات على قيم الإسلام مهما تغيرت به الأحوال، ولا يحق له التغيير سوى فيما يساعده على ذاك الثبات وما يحقق طبيعة استخلافه في الأرض. ومن هذا المنطلق، لا يقدم لربه إلا ما كان طيبا نقيا خالصا ,﴿ يقول رسول الله ﷺ : أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ المؤمنون:٥١،

وَقَالَ :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ...﴾ البقرة:١٧٢،

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَارَبِّ يَارَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ﴾ .

والسيرة النبوية، رغم أنها من الناحية الزمنية تمثل مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، إلا أنها تتميز عنه بأنها تنـزيل متكامل للقيم الإنسانية والأخلاقية على الواقع، وبيان عملي تطبيقي لها، وتشخيص منه ﷺ لأوامر الله عز وجل ونواهيه وتوجيهاته. وهي لذلك حياة مخبريه ومعيارية تجسدت في الواقع ,وتحققت استجابة الناس لها وتمثلها في سلوكياتهم وحياتهم. وعلى عكس ما يقال بأن الإنسان إذا اتخذ أصلا ونموذجا يصبح سلطة مرجعية ضاغطة وقاهرة تحتوي الذات وتفقدها شخصيتها واستقلالها، وإنما إذا اتخذ نموذجا سليما متزنا فإنه يكتسب شخصية قوية متوازنة مع نفسها ومع ما يحيط بها، ولا تظل تائهة ضائعة في خضم لمعان النماذج السلبية المنحرفة؛ لأنه يكون واعيا أن نموذجه المثالي المتمثل في رسول الله مؤيد من الله عز وجل ومعصوم من الخطأ الذي قد يقع فيه باقي النماذج، وبالتالي يستطيع التعامل مع النماذج الإنسانية الأخرى تعاملا نقديا فيأخذ منها ما يفيده ويطرح ما يضره، ويكون بذلك صادقا مع نفسه ومع

فطرته، معتزا بانتمائه وإيمانه .

يقول تعالى :﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء:٧٠ ..

ورغم أن الخطاب هنا شامل لبني آدم جميعا بضمان كرامتهم، إلا أن التوصل إلى لب هذا التكريم يكون بالإيمان وحسن التخلق، والإحساس بهما، وتذوقهما ,وممارستهما عمليا كي يحس الإنسان بتكريم الله وكرمه، وبالسعادة والاكتفاء والشبع في الحياة الدنيا، ويسمو بروحه المؤمنة، فيتطلع ويتشوق إلى الحياة الدائمة التي ذاق جزءا من حلاوتها بإيمانه فيرتقي بسلوكياته، ويراقب تصرفاته ويضبطها، ويستشعر الرقابة الإلهية المطبقة على حركاته وسكناته، فلا يعزم على أي عمل يغضب ربه تعالى، أو أي ممارسة مخالفة للموازين الإلهية في السلوك والعلاقات الاجتماعية، وبالتالي يكون لذكر الله ودعائه أثر يصدّه عن كل ذنب أو معصية ,ويمنحه بوصلة يستهدي بها لتوجيه تصوره العقدي والمذهبي، ويصله بمصدر إنتاج القيم التي تمنح شخصيته خصوصيتها وتوازنها. فلا شيء يضاهي جمال الأخلاق ورفعتها وسموها، فإذا التزم بها المؤمن ألزمته، إضافة إلى ما ذكرته، بالحفاظ على أمن الكون والإنسان وسلامتهما؛ لأنه يؤمن بأن فناء الكون وقيامته لا تقوم إلا على شرار الناس، كما أخبر الصادق الأمين، أي إذا أذنت الأخلاقيات بالزوال، وانعدمت في الكون فقد آن أوان القيامة وفناء الدنيا.
وأكثر ما تحتاج إليه الأمة في مرحلتها الحضارية الراهنة هو صقل القيم الأخلاقية في نفوس أفرادها، كي تستطيع الرؤية بوضوح ويقين وثقة , وتتمكن من حماية ذاتها الفردية والجماعية من حالات التخلف والسقوط والانكسار والشعور بالدونية والنقص. وهي قيم تفتح لها آفاقا لكشف عن معطيات حضارتها، وحقيقة هويتها، التي تذوب في لفحات التفوق المادي لدى الأمم الأخرى، ورفعة رسالتها العالمية، وتحيلها على الطاقات الكامنة في عقيدتها التي استطاعت أن تمتد في الزمان والمكان، فتحاول السعي لإعادة الاعتبار للأنا الحضارية وإعطائها صورتها الحقيقية قبل أن تتعرض للمسخ والتشويه أكثر مما هي عليه، وتعزز انتماءها من أجل التأثير في البنيات المختلفة المشكلة لواقعها المعاصر، والارتقاء به نحو مدارج السمو المحققة لدرجات الاستخلاف

3- التغيير والتجديد

إن عمليات التجديد والتغيير نسيج متلاحم في طبيعة الفكر الإنساني، انبثقت عن فطرة الإنسان من أجل معايشة الواقع البشري وتحسينه والارتقاء به. لذلك شغلت قضية التغيير العقل المسلم منذ وقت مبكر في تاريخ الفكر الإسلامي، واستخدمت مصطلحات متعددة للتعبير عن دلالاته، كالتجديد والإحياء، والبعث، والإصلاح، والتحديث، وغيرها، لتدل على المفهوم نفسه، أو على مفاهيم قريبة منه. فهو ضرورة حضارية لارتباطها بآليات التفكير والتصور في إعادة بناء الأمة حضاريا ومراجعة مناهج تفكيرها وأدائها، وقضية مشروعة وردت بالنص في القرآن الكريم والسنة النبوية للتطلع نحو واقع أفضل وأحسن، والسعي من أجل تربية النفس وتهذيب غرائزها وتوجيهها نحو الرقي والسمو
,

يقول تعالى: ﴿ ...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴾ الرعد:١١.

وإذا كان الطبري ، رحمه الله، وغيره من المفسرين القدامى الذين فسروا هذه الآية قد قالوا

: إِنَّ الله لا يُغَيِّر مَا بِقَوْمٍ مِنْ عَافِيَة وَنِعْمَة فَيُزِيل ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيُهْلِكهُمْ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ ذَلِكَ بِظُلْمِ بَعْضهمْ بَعْضًا وَاعْتِدَاء بَعْضهمْ عَلَى بَعْض, فَتَحِلّ بِهِمْ حِينَئِذٍ عُقُوبَته وَتَغْيِيره» فإنه يمكن القول أيضا: بأن الله لا يغير ما بقوم من فتن وتمزق وهبوط وتخلف فيزيل ذلك عنهم وينقذهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من أمراض ورذائل، ويكدحوا إلى ربهم كدحا، حينئذ يحل بهم نصره وعزه وتغييره،

يقول تعالى مخبرا عن الطريق إلى النصر:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.. البقرة:٢١٤

فالنصر والنجاح في أي أمر من الأمور، لا يأتي بشكل عفوي، وإنما له طريق، تُمتحن فيه الأمة عن مدى ثباتها وصمودها وإرادتها على تغيير الخلل الذي بداخلها

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج:٤٠

والتجديد ظاهرة تاريخية دورية تبرز كلما اعترى المسلمين ذبول في دوافع الإيمان، وخمول في الفكر، وجمود في الحركة، واستفزهم التحدي وقراءة متأنية لنصوصنا الشرعية تجد مشروعية التجديد فيها، . الخارجي

:يؤصل للتجديد ، ويخبر عن كونه سنة ربانية ﷺ من مثل قوله

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا

وهذا يعني العمل على زحزحة العقل المسلم من حالة الاجترار .﴾
والدعوة .والتكرار والسكون إلى حالات التحدي والابتكار والحركة التجديدية يجب أن تمس عمق الظواهر والأشياء، وعدم الاكتفاء بالتجديد الظاهري المادي,
يقول مالك بن نبي ، رحمه الله: فمنذ قرون مضت، كان الفكر الإسلامي عاجزا عن إدراك حقيقة الظواهر، فلم يكن يرى منها سوى قشرتها، وأصبح عاجزا عن فهم القرآن، فاكتفى باستظهاره، حتى إذا انهالت منتجات الحضارة الأوروبية على بلاده اكتفى بمعرفة فائدتها إجمالا، دون أن يفكر في نقدها؛ وإذا كانت الأشياء قابلة للاستعمال فإن قيم هذه الأشياء قابلة للمناقشة، وجدنا المسلم لا يكترث بمعرفة كيف يتم إبداع الأشياء، بل قنع بمعرفة طرق الحصول عليها. هكذا كانت المرحلة الأولى من مراحل تجديد العالم الإسلامي، مرحلة تقتني أشكالا دون أن تلم بروحها، فأدى هذا الوضع إلى تطور في الكم زاد في كمية الحاجات دون أن يعمل على زيادة وسائل إشباعها، فانتشر الغرام بكل ما هو (مستحدث) في جميع طبقات . المجتمع
فإن حُقّ للمسلم أن يتعجل التجدد الحضاري ، فلا » : يقول طه عبد الرحمن يحق له أن يطلب إليه سبيلا ماديا حتى يمحص منطلقاته وينظر في مآلاته ويطمئن اطمئنانًا على مشروعية المنطلقات وسلامة المآلات.. ولما فاته

جانب التمحيص لسبل التقدم المادية المنقولة عن الغرب، سارع إلى الأخذ بها من غير أن يتزود بنصيب من الطاقة الروحية والقدرة الخلقية يكون كافيًا لأن يدفع عن هـذه السبيل أسباب البطلان التي تدخل عليها إن بقيت
فالمقصود تجدد النفس من أجل الاستجابة «مجردة عن التزكية المعنوية الملائمة لمختلف التحديات، ولعوامل النهضة والرقي، وتجدد فهمنا لمختلف .وتعميق رؤيتنا له ,ما يدور حولنا
وللتجديد والتغيير دلالات أخرى كالإحياء
,
﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ :يقول تعالى الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ ..(الحديد:١٦-١٧)بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

فالإحياء واجب تدين موصول، إذ لا يكاد يتحول ظرف أو يجري زمن . إلا انطوى على ابتلاء للإيمان يستوجب تجديده إزاء الموقف الجديد

وهذه الرؤية الإسلامية الشمولية لمفهوم التجديد والتغيير، بالإضافة إلى واقعيتها، فإن لها نفسا مستقبليا؛ لأن الإنسان يميل بفطرته إلى التطلع إلى المستقبل، وتعليق الآمال عليه، فيعمل على تحسين واقعه وحاضره من أجل مستقبل أفضل. وبما أن المستقبل في الإسلام له بعدان: بعد دنيوي وبعد أخروي، فإن المسلم يعي أن الحياة الدنيا ليست سوى كتاب ضخم عليه قراءته ﴿ اقْرَأْ ﴾ وتخطي صفحاته، من أجل سببين اثنين: أحدهما حضاري وهو تسخير الدنيا لإعلاء كلمة الله وخدمة قيم الدين ومثله وأهدافه، وثانيهما شخصي للانتقال إلى حياة سرمدية أخرى، وبذلك يكون مسئولا عن مستقبله ومدعوا لتفجير طاقاته وقدراته من أجله، ومطالبا بالسعي في دنياه إصلاحا .وإعمارا، للوصول إلى مستقبل أخروي وعده الله به

ولأن الحياة لا يمكن أن تسير على نمط واحد، فلا بد من تغيير وتجديد :في مختلف الميادين الحياتية لتحقيق الرخاء والأمن والصلاح

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾(آل عمران:١٠٤).

كما لا بد من انفتاح مثمر على المحيط العالمي والواقع البشري من أجل الاستفادة والتواصل والتبليغ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(الحجرات:١٣).

وفقه الواقع وإدراك شروطه، الذي تتحرك فيه حركات التغيير، وتحسينه والانطلاق منه، باكتشاف سنن المداولة والمدافعة، ووعيها واستفراغ الوسع في الأخذ بأسبابـها، أمر أساس في التغيير والإصلاح, إذ إنه (أي فقه الواقع) لا يتحصل إلا بتوفر مجموعة من الاختصاصات في شعب المعرفة، تحقق التكامل والعقل الجماعي، حتى إننا لنعتقد أن الفقه الصحيح للنص في الكتاب والسنة، يقتضي فهم الواقع، محل النص، في ضوء الاستطاعات المتوفرة.. وفي تقديرنا أن هـذه هـي المعادلة المطلوبة اليوم لقضية الاجتهاد، حتى يسترد العقل عافيته، والاجتهاد دوره، والوحي مرجعيته، ويُقوَّم الواقع بقيم الدين، فهما وتنـزيلا .
وأي حركة تغييرية تستلزم بناء داخليا واضحا ومتينا؛ لأن الواقع الخارجي ما هـو إلا انعكاس للتكوين والمرجعية، فبقدر ما تكون الحركة متماسكة داخليا وواضحة في رؤاها وتصوراتها بقدر ما تستطيع تحقيق أهدافها داخل المجتمع. والبناء قد يبدأ من الفرد الواحد الذي يمكن بصلاحه ومتانة أدواتـه أن يمثل نواة لمجتمع جديد، كما يخبر بذلك سبحانه عندما يطلق على إبراهيم ، عليه السلام، كلمة

﴿ أُمَّةٌ ﴾ في قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ...﴾(النحل:١٢٠).

فالإنسان مدار أي حركة تغيرية ومحورها، توكل إليه مهمة التغيير والبناء والتجديد وتحقيق الخلافة على هـذه الأرض، وتلفت نظره إلى

الكدح وكيفيات التعامل مع الكون والحياة واستغلال الأرض بالاستفادة من عنصري الزمن لإنتاج الحضارة وعمارة الأرض حملا لأمانة الاستخلاف .وتحقيقا للعبودية التي خلق لأجلها
من هنا ينبغي أن تتكامل في شخصية المسلم كل الأبعاد الأخلاقية والمعرفية والسلوكية والاجتماعية والثقافية والتربوية والإنجازية، كي يستطيع كسب استراتيجية الإحسان إلى المجتمع والتعامل معه بالحسنى وحمله على التغيير عن وعي ورشد؛ لأن القاعدة القرآنية كما يرى .د.يوسف القرضاوي تقول: غير نفسك أو غير ما بنفسك يتغير التاريخ
:يقول تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾
(الانشقاق:٦)

,فالكدح في هذه الحياة،كيفما كانت درجته أو طبيعته
من سنن الله، ولا مناص لأي إنسان عنه حتى يصل إلى نهايته وهي لقاء وفي خضم الكدح، تنبت عمليات التغيير داخل الإنسان، فإذا .الله عز وجل كان التغيير واعيا ومسئولا، فهو ارتقاء نحو إثبات الاستخلاف الإنساني .في الأرض، وإن كان غير ذلك كان إما استكبارا وطغيانا، أو تخلفا وهوانا وليس المقصود بالتجديد والتغيير هدم ما كان، وإنما الانطلاق مما سبق إعادة بناء ما اندثر من معالم الصلاح فيه، ومتابعة ,لتصحيحه وتقويمه البناء فوق كل ذلك. وهذه مسئولية كل فرد من أفراد المجتمعات الإسلامية، وخاصة حين نعلم بأن هذه المسئولية لم تغب عن هذه المجتمعات إلا في العصور المتأخرة بعد أن نشب التخلف وما جر من تواكل وتقاعس ولا .مبالاة
وربما كان هذا الخلل الخطير ناجما عن فقدان الروح الجماعية، أو على فطول الهوان الذي أصاب الأمة، أصبح كل » ..الأقل اضمحلالها في النفوس ولم يعد الحس الإسلامي حسا .واحد منا يعيش في برجه أو يعيش في همه جماهيريا، ولذلك ينبغي -حلا للمشكلة- إيقاظ العامة؛ لأن جماهير الأمة هم درع الإسلام وقوته.. لا بد أن نحرك الأمة بجميع أفرادها إلى هذا المعنى، لكن من المؤسف أن نجد ..إلى استشعار قضاياها.. وهذا أمر هام جدا المتحدثين والمتكلمين يتحدثون عن قضايا جزئية، ولا يربطون الأمة ويستنزفون الطاقات المهدرة ويستهلكونها , «بقضاياها الكلية والمصيرية

في التصفيق والصراخ والهتافات الساخنة أو الباردة. فبالرغم أنهم يستطيعون تجميع الناس واستثارة عواطفهم، إلا أن القلة القليلة منهم هي القادرة على إعادة بنائهم وتشكيل عقولهم وصناعتها من جديد وتوظيف والاستفادة منها في سد احتياجات ,طاقاتهم، واستثمارها في البناء والعطاء وبذلك نجد أن سواد المسلمين الراجعين إلى الله رغم تكاثرهم، .الأمة وإعلان توبتهم، إلا أنهم ضلوا الطريق إليه سبحانه، فسلكوا إما طريق كما .الانزواء والبعد عن الدنيا والجهل بها، أو سلكوا طريق العنف والتكفير نجد ثلة من المخلصين الذين لا يجدون متنفسا لتطبيق تصورهم الإسلامي الصحيح في المجتمعات الإسلامية بسبب الهوة الواسعة بينهم وبين صانعي القرار في هذه المجتمعات. ويعد كل هذا من ضمن التحديات الكبيرة التي .تواجهها الأمة، وأكبر عقبة في طريق نهوضها ورقيها

ولا شك أن المنهج الرباني في التغيير والبناء الحضاري، وتطبيقات الأنبياء والمرسلين له، في التعامل مع الواقع، قد استوعب، ومر بالحالات كلها، التي يمكن أن تعرض لها المجتمعات البشرية بشكل عام، والإسلامية بشكل خاص، نهوضا وسقوطا وحركة وركودا، وامتلك الحلول والإجابات .الكاملة، لأصول المشكلات الإنسانية والاجتماعية، وكيفيات التعامل معها

ويستوقفنا في هذا المجال ممارسة نبوية فاعلة ضمن الممارسات الأخرى التي مارسها الرسل والأنبياء حققت

﴿ إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ :التغيير والتجديد في واقعهم، يقول تعالى ﴾ ،

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ ،

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ ،

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾

إنها ممارسة الدعاء المخلص الصادر من القلب، إلى جانب السعي .. والكد، يحقق فضل الاستجابة من الله عز وجل ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾

﴿ ويقول تعالى في حديث قدسي:

«وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ﴾

.

وإلى جانب تصحيح العقيدة وتغيير الأنفس هناك العلم والعمل، يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد:٢٥).

4- العمل

أثار كثير من الذين تعاملوا مع مفهوم الدعاء ودلالاته تعاملا منفصلا عن بقيّة مفاهيم الإسلام شكوكا حوله، باعتباره دعوة إلى فرض الدور السلبي على حياة الإنسان، وتجميد طاقاته، وشلّ نشاطاته، ووسيلة للاتكالية، وإشاعة روح الكسل والخمول في واقعه، وعدم ممارسته لدوره وواجبه، بالاعتماد الغيبي على الله. فالدعاء في رأي هؤلاء انسحاب كامل لقوى الإنسان وجهوده في ميدان العمل والإبداع، وتعليق إنجاز المهام المنوطة به على الله تعالى، لينتهي بذلك دور الإنسان الحضاري ,ويحكم على أمته بالجمود والفناء. وقد يبدو هذا التصور صحيحا إذا فهم المسلم الدعاء مبتورا عن صورته الكلية، ومنبتا عن مجاله المعرفي وأبعاده الزمانية والمكانية، وإذا لم يلتفت إلى السنن الكونية في الخلق، ولم ينفعل بقوى الحركة والفعل في المجتمع، فتضيع بالتالي جهود البناء والإصلاح والتغيير. إلاّ أنّ الفهم الصحيح للإسلام بوحدة أفكاره وشمولية مفاهيمه، يعد ردّا حاسما على مثل هذه الشبهات .

إن الله تعالى حينما شرّع الدعاء لم يكن في معناه تعطيل قوانين المسببات في الكون والخلق؛ لأنه ما من شيء يتحقق إلاّ ويحتاج الى سبب،

وما من حادث يحدث إلاّ وله محرّك. وتعطيل دور الإنسان مخالفة لحكمة الله وإرادته وعقيدة التوكل، وتعارض مع إجابة الدعاء، لذلك شرّع العمل أيضا، وألزم الإنسان به، وبيّن سبحانه مسئوليته وواجبه المترتب عليه.
وكما رفض الإسلام تعطيل الأسباب ودور الإنسان العملي في الحياة، رفض اللجوء إلى الأوهام والخرافات في معالجة المواقف، وتحصيل الأشياء التي يريد الحصول عليها؛ لأنها ليست من قوانين الطبيعة، ولا من أنظمة الوجود التي أودعها الله في هذا العالم، وليس لها أي دور تأثيري في الواقع. وفي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عدد كبير من النصوص الحاثة على العمل وعدم التهاون فيه لمن أراد العزة والنصر والتمكين،

منها قوله تعالى يدعو للاستعداد واكتساب القوة
:﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ ؛ وقوله في كيفية صلاة الخوف

:﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ،

وقوله لموسى ، عليه السلام، منبها له على التحصّن بالليل اختفاءً عن أعين الاعداء، ودفعا للضرر :
﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ ؛ وقولـه في خطابه تعالى للمنافقين، مزاوجا بين الإرادة والعمل:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾)التوبة:٤٦)؛

وقوله رابطا العمل الصالح بالمنفعة

:﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النحل:٩٧ .

والعمل الصالح هنا لا يقتصر على العبادات، وإنما ينسحب على كل عمل مقترن بشروط الصدق والإخلاص، ويحقق مصلحة للعباد .

والناظر لهذه الآيات وغيرها درك أهمية العمل في الإسلام، والترغيب فيه، والحث عليه، وربطه تعالى المسبّبات بالأسباب، ولذا نجد أنه لما أهمل الاعرابي بعيره، وقال: توكّلت على الله،

﴿ قال له النبي ﷺ : اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ ﴾ بل إنه عليه الصلاة و السلام يُعبّد طريقًا واحدًا يربط الدنيا بالآخرة، والعمل بالعبادة

فيقول :﴿ إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ ﴾ .

وهذه الرؤية في المنهج النبوي جعلته ﷺ يتعامل مع توجيهات الوحي ومدركات العقل تعاملا متكاملا، فيأخذ بالأسباب ,ويتحمل مسئولية عمله، متوكلا على الله، مستفرغا وسعه في الدعاء والتضرع ,وانتظار العون والمدد منه سبحانه.
وقد جاء قول الله الحق صريحا واضحا للكشف عن دور العمل في حياة الإنسان، ومسئوليته عنه وتعميقه في نفسه،

يقول تعالى :﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ النجم:٣٩

وورد في الحديث الشريف ما يرادف هذا المعنى، ويؤكد مسئولية الإنسان، وإذن فليس بإمكان أحد بعد هذا الإيضاح أن يقول: إنّ الإسلام دعا إلى الاتكالية والكسل، وعطّل الأسباب والقوانين الطبيعية للحياة، فكلّ ما جاء في الإسلام دعوة إلى الجدّ وممارسة المسئولية والسير بالحياة وفق قوانين الطبيعة وسننها التي أودعها الله في هذا العالم. وعندما نسلم بهذه الحقيقة الفاعلة في دنيا الإنسان ندرك أن عليه واجبا ومسئولية، وأنه إذا أراد إنجاز شيء ما، وسعى لتحقيقه بالأسباب المادية دعا الله سبحانه لإعانته على ذلك، وهنا يأتي العون الإلهي متمثلا بتوفيق الله الإنسان لإصابة الأسباب الملائمة، وتأهيلها لإعطاء النتائج المرجوّة. ولنا في القرآن الكريم والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي شواهد تعزز ارتباط العمل بالدعاء، والتوفيق الذي يكون بهما معا .يقول تعالى مخبرا عن طالوت

وجنوده قبل بداية المعركة مع جالوت:

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾
البقرة:٢٥٠

وبعد هذا الدعاء، كان الجواب من الله :﴿ **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ...**﴾
البقرة:٢٥١،

فالنصر كان حليفهم حين دعوا الله وتوكلوا عليه، بعد تحملهم مسئولية الأخذ بالأسباب المادية، والسعي لتحقيقها على أرض الواقع بإذن الله وتوفيقه بعد الدعاء والتوكل عليه سبحانه .

والسيرة النبوية تقف كلها شاهدة على سعيه ﷺ وجده في العمل مع التوكل على الله ودعائه والتضرع إليه في كل لحظة من لحظات حياته.
ولعل قصة النعمان بن مقرن في سنة إحدى وعشرين في التاريخ الإسلامي تحكي عن تكامل العمل والدعاء في حياة المسلمين، وعدم الفصل بينهما، فبعد أن تحصن الفرس بخنادقهم، وطال حصار المسلمين لهم، استشار استشار النعمان قادته، فأشاروا عليه باستدراج الفرس والتظاهر بالهروب حتَّى إذا ابتعد الجند عن حصونهم وخنادقهم نشبت المعركة، ووافق النعمان على الخطة، وقال لهم: إني مكبر ثلاثا فإذا كان الثـالثة فابدءوا بالقتال، وهنا لم ينس النعمان الاتصال الروحي مع الله، فقد ذهب النعمان إلى أحد الأمكنة ودعا
الله قائلًا: «**اللهم اعزز دينك، وانصر عبادك، اللهم إني أسألك أن تقر عيني بفتح يكون فيه عز الإسلام، واقبضني شهيدا**»،

وبكى الناس مع النعمان وابتهلوا إلى الله وتضرعوا، واستجاب الله دعاءهم فنصرهم على عدوهم نصرا عظيما، واستجاب الله دعاء النعمان بن مقرن، فكان أول قتيل من المسلمين على أرض المعركة، رضي الله عنه ..

إن عمل المسلم في الحضارة الإسلامية إبان ازدهارها تفاعل لا ينقطع وتدافع بين الحق والباطل لا يتوقف، استعانة بالأسباب مع مصاحبة الدعاء في أي وقت من الأوقات، مقتديا بحبيبه المصطفى ﷺ الذي كان الدعاء يدخل في كل شعبة من شعب حياته الجليلة، فلم يستغن أبدا عن شرب هذا الشراب الكوثري، الذي يحفزه على العمل. يقول ابن قيم الجوزية » :كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكرا لله عز وجل، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرًا منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله، ووعده ووعيده، ذكرًا منه له، وثناؤه عليه بآلائه، وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكرا منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته ذكرا منه له، وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه، فكان ذاكرا لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه، قائما وقاعدا وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه ومسيره ,ونزوله وظعنه وإقامته» . وبذلك يمتد الإسلام بما يتَّسِم به من الشمول والاتساع والمرونة امتدادا يتناول كل أطراف الحياة ومناحيها من القضايا والمشكلات والأمور، فهو يمتد ليشمل فرائض ومندوبات شتى يؤجر فاعلها من الله أجرًا كبيرا .

وهناك سؤال يلح على أفئدة بعض الداعين، تتشدق به أفواههم، وهو: لماذا لا تستجاب كل الدعوات وتردّ في أشدّ ظروف الإنسان محنة وحرجا؟

إن استجابة الدعاء مرهونة بمشيئة الله تعالى، ومع ذلك فهناك شروط يجب على الداعي تهيئتها قبل الدعاء، ثم يترك لله بعد ذلك ظرف استجابته، سواء في الدنيا أو في الآخرة. وهذه الشروط منها ما هو ذاتي يرتبط بالإنسان الدّاعي نفسه، ومنها ما هو موضوعي يرتبط بأسباب المسألة التي يدعو المؤمن لتحقيقها، ومنها ما هو رباني يتعلق بحكمة الله وعلمه بمصالح العباد. فالشرط الذاتي يستدعي الثقة المطلقة بالله عز وجل، واليقين بإجابته، حيث تكون الذات الإنسانية تتطلع للوصول إلى علاقة قوية مع الله تعالى والارتباط به سبحانه، تؤهلها لرفع الدعاء إليه، واستقبال فيوضات رحمته الربانية، واستحقاق القبول منه تعالى، ﴿ فعن أبي هريرة ، رضي الله عنه،

قال: قال رسول الله » : ﷺ ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ ﴾ .

وقال أيضا في استجابة الله :﴿ إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ «﴾ .

ومثل هذه العلاقة تنبني على الإيمان المطلق بالله والاستجابة والإخلاص له:

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ غافر:١٤،

الأمر الذي يعني الالتزام بشريعته ومنهجه، وضرورة تفعيل قيم ومبادئ ومفاهيم القرآن في ممارساتنا بقناعة وثقة مطلقة بوعد الله،

يقول تعالى :﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ البقرة:١٨٦.

فإجابة الدعاء مرتبطة بالاستجابة لله والإيمان به أي أن العون الإلهي هو ترشيد الإنسان وهدايته إلى أسباب نجاح دعوته، وإعانته على إنجازها،

وبالتالي يكون الدعاء تعبير عن إيمان المسلم، وإعلانه بأن الله هو خالق كل شيء، وهو مالك كل شيء، وإقراره بفقره إلى الله، وعدم استغنائه عنه، واقتلاع جذور الغرور والكبرياء من أعماقه، والتوبة من الذنوب والمعاصي، وعدم تعجيل الإجابة، ﴿ يقول رسول الله »: ﷺ يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي «﴾ ،

﴿ ويقول:«لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ.. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ «﴾

.قال ابن حجر » :وفي هذا الحديث أدب من آداب الدعاء، وهو أن يلازم الطلب، ولا ييأس من الإجابة؛ لما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار . «وقال ابن القيم » :ومن الآفات التي تمنع أثر الدعاء أن يتعجل العبد

ويستبطئ الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذرا أو غرس غرسا فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله. « أما الشرط الموضوعي فيستدعي تهيئة الظروف والأسباب المصاحبة للدعاء، من ذلك مثلا تحري الحلال في كل مستلزمات الحياة، من مأكل وملبس وغيرهما،

﴿ قال رسول الله » ﷺ أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ:

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ المؤمنون:٥١

وَقَالَ :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ...﴾ البقرة:١٧٢،

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ﴾ .فالعمل على الأخذ بالأسباب شرط أساس من أجل استجابة الدعاء، فالمريض مثلا عليه التداوي بالطب وأخذ الدواء مع الدعاء وطلب الشفاء منه تعالى، أما التقاعس عن أخذ الدواء والاتكال على الدعاء، فهذا غباء وسلبية ينهى عنها الإسلام؛ لأن الله تعالى جعل بحكمته علاقة بين

الأشياء وأسبابها، ويأتي دور العون الإلهي في هـذه الحالة متمثلا بتوفيق الله الإنسان لإصابة الأسباب الملائمة، وتأهيلها لإعطـاء النتـائج المرجوَّة،
يقول ابن القيم : «الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه ألا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويُصرف عما يعارضها ويبطل أثرها .«
أما الشرط الرباني فيستدعي عدم مخالفة الدعاء لحكمة الله ومشيئته تعالى؛ لأنه يجب ألا يغيب عن ذهن الداعي أن مشيئة الله سبحانه هـي النّافذة، وإرادته هـي الغـالبة، وليس للأسـباب والقـوانين الطبيـعية دور الحتمية إذا شاء الله سبحانه الاستجابة أو عدمها :

يقول تعالى :﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ يس:٨٢،

ويؤمن بأن الخالق للأسـباب والقوانين الطبيعية قادر على أن يغيّر ويبدّل ما يشاء بقدرته، وأن يوفّق الإنسان بعد عجزه إلى اكتشاف السبب الذي يوصله إلى تحقيق غايته، أو يحجبها عنه إذا كانت مصلحته في ذلك حسب علم الله، إذ كثيرا ما يدعو الإنسان لتحقيق شيء وهو لا يحسن تقدير نتائجه، ولا طبيعة آثاره في حياته، أو في مجتمعه، كما أنه قد يلح بالطلب، ويرفع صوته بالدعـاء والابتهال في التخلص من شيء، وهو لا يعلم أن مصلحته فيما يرفض، وخيره فيما يدعو الله للخلاص منه، فكل ذلك خاف على الإنسان لعدم قدرته على معرفة الغيب، أو الاطلاع على نتائج ما يريده ويطلبه. كما قد يستدعي الشرط الرباني تأخير إجابة الدعاء لكي يلح الداعي أكثر على ربه، وهناك أحاديث مرفوعة في هـذا المجال، ذلك أن الإلحاح في الدعاء يعقبه الانكسار بين يديه سبحانه. وقد تقتضي حكمة الله ومشيئته عدم إجابة الدعاء رغم توفر الشرط الذاتي والشرط الموضوعي، لكنه تعالى إما يدخر لصاحبه ثوابه في الآخرة، أو يخفف عنه بلاءً في الدنيا.
وفي نص لابن قيم الجوزية يجمع فيه بعض شروط استجابة الدعاء ويبين أوقات الاًستجابة ويشرح بعض آداب الدعاء يقول فيه :
»إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتا من أوقات الإجابة الستة، وهو الثلث الأخير من الليل، وعند الآذان، وبين الآذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر، وصادف خشوعا في القلب، وانكسارا بين يدي الرب،

وذلا له وتضـرعا ورقة، واستـقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعـالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبـده ورسـولـه ﷺ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاسـتغفار، ثم دخل على الله وألح عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسـل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صـدقة، فإن هـذا الدعاء لا يكاد يُردّ أبدًا، ولا سيما إن صـادف الأدعية التي أخبر بها النبي ﷺ أنـها مظنة للإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم« وأكثر مواطـن الاستـجابة موطن السجـود،

لقول النبي ﷺ: ﴿ ...فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عز وجل، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ .

وأفضل أوقات الدعاء جوف الليل

﴿ لقوله ﷺ: أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ ﴾ ،

﴿ **وقوله عليه الصلاة و السلام، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه :يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ** ﴾ .

وفي رواية للطبراني ﴿ عن أبي أمامة ، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: تُفتح أبواب السماء ويُستجاب الدعاء في أربعة مواطن: عند التقاء الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلاة، وعند رؤية الكعبة ﴾ .

الدعاء المستجاب

تكثر الآيات التي تدخل في إطار الدعاء، في الخطاب القرآني والحديثي،

كان النبي ﷺ يدعو بها، ويدعو إلى الدعاء بها، إلا بعض الأدعية القرآنية الخاصة، من مثل دعاء عيسى ، عليه السلام،

في قوله تعالى: ﴿... اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ...﴾ (المائدة:١١٤)،

فهذا دعاء خاص بعيسى لقومه ليس للمسلم فيه سوى ثواب التلاوة والتدبر.
ويمكن تصنيف نصوص الدعاء حسب دلالاتها العامة، إلى أقسام:

القسم الأول: تصنيف نصوص الدعاء القرآني

إن المتأمل في نصوص الأدعية الواردة في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف يدرك أهمية الدعاء وقيمته الفكرية والنفسية والروحية التي تتغلغل في حياة الإنسان، وتتحول سلوكا ومواقف إنسانية، تسري معانيها في محيطه ومحيط جماعته البشرية. ومع استفاضة دلالات الدعاء وتشعبها، وتنوعها أيضا في النص الواحد، فإنه يمكن تصنيفها في محاور تجمع معانيها التي تنتمي إلى حقول دلالية متشابهة ومتقاربة.

المحور الأول: دلالات الهداية

غني عن الذكر بأن القرآن الكريم كتاب هدى وهداية قبل كل شيء، لذلك كانت القاعدة العامة التي يقوم عليها تصب في مجالين اثنين: مجال المهتدين بهدايته والطريق التي أوصلتهم إلى الله تعالى، ومجال المحرومين من هدايته ,والسبل التي انحرفت بهم عنه سبحانه،

يقول تعالى :﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة:٢ ,

ويقول تعالى بأسلوب التأكيد :﴿ إِنَّ هـذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِـيَ أَقْوَمُ ...
﴾الإسراء: ٩

ويقول :﴿ **يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ المائدة:١٦

ويَرِد ذكر الهداية وحقول دلالاتها المرتبطة بالخير والنعمة والرشد والاستقامة والأمن والاعتصام والمجاهدة منذ مطلع القرآن الكريم في سورة الفاتحة حتى نهايته في سياقات مختلفة، ترتبط بالعقيدة والشريعة والسلوك والأخلاق .

ويجمع دعاء الفاتحة في قوله تعالى :﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾
﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** ﴾
الفاتحة:٦-٧

كل هذه السياقات؛ لأنه طلب معرفة الحق والعمل به في جميع التفاصيل الدينية والدنيوية. ولهذا كان هذا الدعاء، كما يذهب إلى ذلك معظم المفسرين والعلماء الذين تعرضوا له، من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد. فرضه تعالى عليه في كل ركعة من صلاته، لأهمية تأثيره في الدنيا والآخرة .

وتأتي الأدعية الأخرى المرتبطة بدلالات الهداية في القرآن الكريم بوصفها معالم تربوية، تقوم على دعائم التكرار المستمر للقيم والفضائل وأنماط السلوك، لترسيخها في عقل الإنسان، بأساليب وصيغ مختلفة وأفكار متجددة، لكن يبقى المعنى الأساس قائم في قلب تلك الأساليب والصيغ والأفكار يشير إلى أن أي هداية إلى الصراط المستقيم لا تكون إلا بالاستعانة بالله عز وجل وتوفيقه، وأن مجمل الأدعية الواردة في مجال الهداية تسعى إلى إعادة صياغة الإنسان وفق قيم جديدة، وفي إطار سلوك قويم يقوده إلى الصراط المستقيم .
ويمكن تصنيف الأدعية التي تصب في دلالات الهداية حسب ورودها في

القرآن الكريم على النحو التالي:
-يقول تعالى على لسان إبراهيم ، عليه السلام، بصيغة الجمع لتثبيت مفهوم الوحدة والجماعة وترسيخ استمرارية الهداية والصلاح :

﴿ ...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

البقرة:١٢٧-١٢٩جمع إبراهيم ، عليه السلام، في دعائه بين ستة من أسماء الله تعالى
:﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ...﴾ الأعراف:١٨٠ ,

واصفا إياه بصفات السمع والعلم والتوبة والرحمة والعزة والحكمة لتعليل طلب القبول :
﴿ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وتوسل هدى الله وتوفيقه في النفس والذرية الموصلان للتوبة والرحمة
﴿ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ,الموجبان لاستمرار الهداية وتزكية النفس، وإحاطتها بالعلم والعزة والحكمة .

- ويقول تعالى على لسان زكريا ، عليه السلام، في سياق إثبات قدرة الله ومَنِّه، طالبا منه ذرية مهتدية بهديه :﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ آل عمران.٣٨.. فالذرية الطيبة الموصولة بالله عز وجل لن تكون كذلك إلا بهدى من الله وتوفيقه.

-ويقول تعالى على لسان الحواريين :
﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ آل عمران:٥٣، و ﴿ الشَّاهِدِينَ ﴾

حسب قول ابن عباس ، رضي الله عنهما، هم أمة محمد ﷺ , وكما يقول الطبري :الذين شهدوا بالحق وأقروا لله بالتوحيد.. والإقرار بالإيمان

واتباع هَدْي رسول الله ﷺ يدفع المؤمن لطلب مرافقة الشاهدين للأنبياء بالحق والصدق، والتأسي بهم ,لاكتساب القدرة على الاستقامة كما استقاموا حين أخذ الله منهم عهد اتباع الرسول الذي يأتي من بعدهم ونصرته ,

يقول تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ آل عمران:٨١

. -يقول تعالى في سياق الحديث عن أحوال أولي الألباب الذين يتفكرون في عظمة الله كل لحظة من لحظات حياتهم، ويستنجزون وعد الله:

﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران:١٩٣-١٩٤ .

-ويقول تعالى :﴿ ...رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ المائدة:٨٣.

إن معرفة الحق تورث المؤمن أملا في اللحاق بالصالحين والمهتدين، يقول تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾ البقرة:١٤٣..

الشهادة تكون للإنسان الحضاري الفاعل، الذي يؤدي دور الخلافة، وليس المنزوي في أذيال التاريخ والزمن.

-ويقول رب العزة على لسان إبراهيم ، عليه السلام :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَام ﴾ ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ إبراهيم:٣٥-٤١
. ودعاء إبراهيم ، عليه السلام، يشمل طلب الهداية والأمن، وقد استجاب الله تعالى لرسوله في قوله :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ،فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ...﴾ آل عمران:٩٦-٩٧.

-يقول تعالى على لسان موسى ، عليه السلام، في سياق حديثه عن تبليغ رسالته

:﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ طه:٢٥-٢٨ .

-ويقول تعالى :﴿ ...رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه:١١٤. والدعاء بالعلم يأتي بالهداية.

-

ويقول تعالى :﴿ ...رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ الفرقان:٧٤ .

وهنا يتكرر طلب الزوج الصالح والذرية الطيبة لما لهما من تأثير على استقرار المؤمن وإعداده للدخول في زمرة المتقين، واستمرارية النسل المهتدي بهدي الله.

-

ويقول تعالى :﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾الشعراء:٨٣؛

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الصافات:١٠٠

.

والدعاء بالصلاح يدخل في إطار الهداية والتوفيق.

هذه الأدعية القرآنية، التي وردت على لسان الأنبياء والصالحين، تؤكد أن أسمى غاية يرجوها الإنسان المسلم هي هداية الله وتوفيقه، وأن يهبه سبحانه الصلاح من عنده.

المحور الثاني: دلالات الرحمة

تنتمي الرحمة إلى حقول دلالية متعددة منها التفضل والإحسان والمغفرة والعطف والعفو، ويراد بها إرادة الله تعالى إيصال الخير والثواب لمن يشاء من عباده، ولذلك كان من صفاته الرحمن الرحيم. ورحمته تعالى في الدنيا شاملة للمؤمن والكافر، والصالح والطالح، وذلك بإيصال الرزق، وخلق الصحة، ودفع الأسقام والمصائب

﴿ ...وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ...﴾ الأعراف:١٥٦ .

كما أنه سبحانه خلق الكون والكائنات بالرحمة، فقال

:﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ,وبعث رسول الله ﷺ بالحق ورحمة لكل العالمين، يقول تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾
الأنبياء:١٠٧ ,
وإذا كانت الرحمة تعني النعمة والخير فإن المغفرة تعني الستر بعد المعصية. وصفة الرحمة من الصفات التي ينبغي على المسلم الاتصاف بها، كي يستطيع التعايش مع كل الناس مهما كانت انتماءاتهم أو توجهاتهم ,

والتأثير فيهم برحمته وعطفه وعفوه. وقد كانت رحمة النبي ﷺ من أهم صفات شخصيته، تطبع فكره وذوقه ووجدانه، وتفيض بها أخلاقه ومعاملاته وعلاقاته، وتميزت بها دعوته، وكانت من صميم شخصيته، رسولا ونبيا ومبلغا عن ربه وهاديا للناس،

يقول تعالى :﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة:١٢٨،

فهو ﷺ مثل أعلى للرحمة الإلهية لذلك كان من صفاته الرءوف الرحيم، كما أنه رحمة شاملة للوجود بأجمعه، ولذلك حين قيل له: ادع على المشركين،

﴿ قال »: ﷺ إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً «﴾ .
والأدعية، التي تنطوي على معاني الرغبة في رحمة الله ومغفرته الواسعة والشاملة في القرآن الكريم، على نوعين :

النوع الأول: أن يعرض العبد حاله على رب العالمين دون أن يطلب شيئا، كدعاء أيوب ، عليه السلام،

في قوله تعالى :﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾
الأنبياء: ٨٣

. **النوع الثاني:** أن يعرض العبد حاله وطلبه أيضا على رب العالمين، كما في قوله تعالى :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف:٢٣.

وهذه الأدعية التي وردت في دلالات الرحمة والمغفرة :

-

يقول تعالى :﴿ ...رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة:٢٨٦ .

-ويقول تعالى على لسان زكريا ، عليه السلام :

﴿ ...هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ آل عمران:٣٨.

-ويقول تعالى، على لسان عيسى ، عليه السلام :

﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ المائدة.١١٤.

-

ويقول تعالى :﴿ ...رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف:٢٣ .

-

ومن دعاء شعيب ، عليه السلام :﴿ ...رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ الأعراف:٨٩. -ويقول بلسان موسى ، عليه السلام

:

﴿ ...رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ الأعراف:١٥١

-ويقول بلسان نوح ، عليه السلام :﴿ ...رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ هود:٤٥؛

﴿ ...رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ هود:٤٧

-

ويقول :﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ابراهيم:٤١

-

ويقول تعالى :﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ الإسراء.٨٠.

وهذا الدعاء، حسب القرطبي ، يدخل في كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة، يطلب المؤمن فيها الرحمة.

-

ويقول تعالى :﴿ ...رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ الإسراء:٢٤.

-

ويقول تعالى :﴿ ...رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ الكهف:١٠ .

-

يقول تعالى على لسان زكريا ، عليه السلام :

﴿ ...رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ مريم:٤-٦

.

وتدعو مريم :﴿ ...رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ...﴾ مريم:١٠

ويقول تعالى على لسان يونس ، عليه السلام :﴿ ...لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الأنبياء:٨٧

.﴿ وروى سعد ابن أبي وقاص ، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ

قال: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ »﴾ .

-

يقول تعالى على لسان زكريا ، عليه السلام :﴿ ...رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ الأنبياء:٨٩

-

ويقول تعالى :﴿ ...رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ المؤمنون:٢٩.

-

ويقول تعالى :﴿ ...رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ المؤمنون:١٠٩.

-

ويقول :﴿ ...رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ المؤمنون:١١٨.

-

دعاء نوح ، عليه السلام :﴿ ...رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾

﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
الشعراء:١١٧-١١٨

. -﴿ ...رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾
نوح:٢٦-٢٨ .

-ويقول تعالى :﴿ ...رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾
القصص:١٦-١٧.

-

ويقول :﴿ ...رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ غافر:٧-٩

-

ويقول :﴿ ...رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ الحشر:١٠.

-

ويقول تعالى :﴿ ...رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
الممتحنة: ٤-٥.

ويقول تعالى :﴿ ...أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
التحريم:٨

دعاء امرأة فرعون :﴿ ...رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ التحريم:١١.

إن دلالات طلب الرحمة والمغفرة حاضرة بقوة في هذه الأدعية العديدة، وتكشف أمل وطمع العبد في رضاه سبحانه ورحمته التي وسعت كل شيء.

المحور الثالث: دلالات الصبر

إن ما يعتري الأمة من أزمات ومصائب ووهن وانهزام، سواء في الداخل أو الخارج، يكاد يسلم كثيرا من الناس إلى اليأس والإحباط، وإلى النظر إلى واقعهم بعين السخط والتشاؤم، لكن هذا الواقع لا يجب أن يفقد الأمة تماسكها ومحاولاتها المستمرة في إنقاذ نفسها، خاصة وأنها تملك مبشرات النصر والتمكين، كامنة في نصوصها الشرعية، وفي أعماق التاريخ ,

يقول تعالى :﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ البقرة:٢١٤

لذلك، بدلا من الاستسلام وسلوك دروب التواكل، يجب أن تسلك طريق النصر بعيدا عن اليأس والقنوط، ومن أهم معالم هذا الطريق الصبر، فهو قاعدة إيمانية مثمرة، تورث الفاعلية للخروج من كل ما يعتري الأمة، وارتياد آفاق أفضل ,

يقول تعالى :﴿ ...إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الزمر:١٠؛

كما أنه قرين الجهاد في فتح أبواب الدنيا والآخرة,

يقول تعالى :﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ آل عمران:١٤٢؛

وهو عدة المؤمن التي ينال بها الرضا بقضاء الله، عندما يبتلى في نفسه وأهله وماله وأمته، وهو من المبشرين بهدى الله، وأن تغشاه رحمته، ويحظى بصلواته عليه،

يقول تعالى :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ البقرة:١٥٥-١٥٧

من هنا كان النصر الحقيقي يتمثل في الصبر والثبات، والإخلاص في العمل ,واستشعار معية الله وحسن الثقة واليقين به سبحانه، وكانت كل الأدعية التي تصب في محور الصبر تعمل على نحته في القلوب والعقول؛ لأنه بدون صبر لا يمكن المضي في طريق تفعيل الإيمان في النفس، والارتقاء بها نحو مختلف القيم الأخلاقية كالصدق والإخلاص وغيرهما،

ولذلك ﴿ قال رسول الله ﷺ » : مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ «﴾ .

وهذه جملة من الأدعية التي تدور حول الصبر وطلب الثبات على الأمر المؤدي إلى النصر:

-يقول تعالى :﴿ ...رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة:٢٥٠ .

-

ويقول تعالى :﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ آل عمران:٨.

-ويقول عز شأنه :﴿ ...رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران:١٤٧

-

ويقول تعالى :﴿ ...رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ الأعراف:١٢٦

كل هذه الأدعية تزود المؤمن بطاقات فاعلة تجعله يمضي في الطريق الموصلة للجنة بتدرج وأخذٍ بالأسباب العملية والإيمانية،
يقول تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة:١٥٣،

ويقول :﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ العصر:٢-٣
وكما جاء في الحديث الصحيح :﴿ ...َالصَّبْرُ ضِيَاءٌ «﴾ فلا بقاء للحق بغير صبر، ولا طريق موصلة إلا إذا تنوّرت بالصبر

المحور الرابع: دلالات الخشية

إن خشية الله تعالى من أبرز صفات المؤمنين، وأعظم آثار الإيمان،
يقول تعالى :﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ الأنبياء:٤٩،
وهي أعلى مرتبة من الخوف .يقول ابن القيم » :الخشية أخص من الخوف، فهي خوف مقرون بمعرفة . «فالخوف على مراتب:
-أدنى مراتبه الخوف الذي هو من شروط الإيمان ومقتضاه، كما يشير إليه قوله تعالى :﴿ ...وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران:١٧٥؛
-ثم مرتبة الخشية ذات الطابع العلمي والمعرفي كما في قوله تعالى :

﴿ ...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ فاطر:٢٨ .

-ومرتبة الوجل :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال:٢،

وهي أساس مراقبة الله، تعمر قلب المؤمن، وتحول بين صاحبه وبين محارم الله ومعاصيه، وترقى به إلى درجة الإحسان التي تجعله يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، فيتميز عن الغافلين والعابثين، يقول :

﴿ مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ «﴾

والخوف من الله لا يعني الشعور بالرعب الذي يزرع القلق والخلل والاضطراب في نفس الخائف، وإنما هو إحساسٌ دائمٌ بالرقيب الأعلى وتمثُّلٌ فاعل لوجود الله، وامتثالٌ مطلقٌ لفعل أوامره، وترك لنواهيه .
وانطلاقًا من هذا المفهوم للخوف من الله وخشيته، يكون المؤمن مستشعرًا الطمأنينةَ، والسلامَ النفسيَّ، ويكون من الذين قال عنهم سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد:٢٨

﴿ وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا أنه قال: «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين: إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة «﴾

.وكلما تقرب العبد من ربه كان أشد خوفا وخشية له، ولذلك ﴿ قال حبيب الله المصطفى ﷺ ...» : فَوَاللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً ﴾ .

ومع شدة إقبال العبد على الطاعات، والتقرب إلى الله بأنواع القربات؛ يشفق على نفسه أشد الإشفاق، ويخشى أن يُحرم من القبول، ﴿ فعن عائشة

، رضي الله عنها، قالت: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ:
﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمِ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ:لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمِ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ .

كما يشفق على العمل أن يصير إلى ضياع ,

يقول تعالى :﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ الفرقان:٢٣

فيلجأ إلى الله خوفا وطمعا، كي يعينه على تحسين عمله. ومن خوفه منه سبحانه يبكي على تقصيره، ويزداد إيمانا وخشوعا وطاعة .﴿ وقد بين

ﷺ أن من بكى من خشية الله فإن الله يظله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فقال ...» :وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ «...﴾ ,

ويقول تعالى :﴿ ...إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾
﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾)الإسراء:١٠٧-١٠٩(.

وهذا البكاء يزيد المؤمن قربا من الله، كما يزيده عزة بالنفس وصلابة في المواجهة وسموا .
ومن هذه الأدعية الواردة في الخوف من الله والخشية منه تعالى:
-

يقول تعالى :﴿ ...رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ البقرة:٢٠١ .

-

ويقول :

﴿ ...رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران:١٦

-ويقول تعالى:

﴿ ...رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ الفرقان:٦٥

-ويقول عز شأنه:

﴿ ...رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ يونس:٨٥-٨٦

-ويقول تعالى :﴿ ...رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ المؤمنون:٩٧-٩٨.

-ويقول تعالى على لسان لوط ، عليه السلام:

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ الشعراء:١٦٩.

-ويقول تعالى :﴿ ...رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ العنكبوت:٣٠.

فكل هذه الأدعية تدور حول دلالات الخوف من الله والخشية من عذابه، وتطلب شمولية الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة.

المحور الخامس: دلالات الشكر

من أبرز الصفات التي يجب على المؤمن أن يتصف بها أن يكون عبدا شكورا، حامدا الله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى. وللشكر دلالات متعددة أهمها الحمد والثناء والرضى .﴿ وفي حديث لأبي هريرة ، رضي

الله عنه، يقول رسول الله » : كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ

أَقْطَعُ «﴾ ولذلك كان لا ينفك يشكر ربه آناء الليل والنهار،

ففيما ﴿ يروي ابن عمر ، رضي الله عنهما، عن أمّنا عائشة ، رضي الله عنها، وهي

تصف أمر الرسول وتبكي: «كل أمره كان عَجَبا، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال» :ذريني أتعبَّد لربي»، قالت: فقلت: واللهِ إني لأحِب قربَك، وإني أحب أن تَعبّدَ لربك، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ في هذه الليلة:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾)آل عمران:١٩٠)»، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴾

وفي رواية أخرى :﴿ يا بلال !أفلا أكون عبدا شكورا؟ ﴾ .

ورغم أن الأدعية الواردة في القرآن الكريم في مجال الشكر ليست كثيرة،

فإن كل الأدعية التي وردت عن النبي لا تخلو من حمد الله والثناء عليه وشكره على نعمه، المادية والمعنوية .

ومن هذه الأدعية التي جاءت في القرآن الكريم في دلالات الشكر والحمد:

-يقول تعالى على لسان امرأة عمران بعد أن رزقها الحمل:

﴿ ...رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾آل عمران:٣٥.

-ويقول تعالى على لسان يوسف ، عليه السلام، يشكره سبحانه على نعمه :

﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ يوسف:١٠١.

-ويقول تعالى على لسان سليمان ، عليه السلام :
﴿ **...رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** ﴾ **النمل**:١٩

-ويقول تعالى على لسان موسى ، عليه السلام :
﴿ ...رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ القصص:٢٤

-ويقول تعالى على لسان سليمان ، عليه السلام :

﴿ ...رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ ص:٣٥

-ويقول أيضا :﴿ **...رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ الأحقاف:١٥

إن المتأمل في المحاور الخمسة يجد أن الأدعية تحمل في طياتها بعض الدلالات التي ذكرناها، وتتداخل فيها معانيها من مثل قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ آل عمران:٨ ,

فرغم انتمائها إلى محور دلالات طلب الصبر والتثبيت إلا أننا نلمس، سواء من خلال السياق أو المعجم، دلالات الهداية والرحمة والعطاء، وهكذا في

باقي الأدعية .
لكن المعنى العام الذي يجمع بين هذه الأدعية، وينسج لحمتها هو الافتقار المطلق لله تعالى،
يقول عز شأنه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾
فاطر:١٥

، وقد عرَّف ابن القيم الفقر بقوله » :الفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة إلى الله -تعالى- من كل وجه . «
وهذا هو المطلوب في الدعاء، استحضار معناه العام الدال على الافتقار إلى الله تعالى، وتَجرُّد قلب العبد من كل أهواء الدنيا ومغرياتها، وإقباله بالكلية على المولى عز وجل ,متذللا بين يديه، مستسلما لأوامره ونواهيه، متعلقا بمحبته وخشيته وطاعته ,
يقول تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ الأنعام:١٦٢-١٦٣

والدعاء ليس مختصا بالمسلمين فقط، وإنما كل الناس يلجأون إلى من يؤمنون به، يدعونه ويتضرعون إليه، لكن الله تعالى يقول عن الذين ينحرفون عن دعائه:

﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ غافر:٥٠.

القسم الثاني: تصنيف نصوص الدعاء النبوي

إن أعباء الدعوة والدولة والمجتمع والأسرة أو أي شيء آخر مهما كان لم يكن يشغل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي الله عز وجل ,

ومناجاته، والتذلل له سبحانه في كل لحظة من لحظات حياته، فقد كان في اتصال دائم بالله، يؤكد عبوديته له سبحانه في كل عمل من أعماله وفي كل خطوة يخطوها، حياته سلسلة متواصلة من الذكر والدعاء والعمل. وكان

الدعاء يصاحبه ﷺ في كل عمل، دعاء في دعاء في دعاء، قطرات من نهر رقراق يجري في كل منحى من مناحي حياته، وما زال يجري رقراقا صافيا يدعونا للتعطر بمائه ,

يقول تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب:٢١ .

وإذا كانت الإحاطة بكل نصوص دعائه ﷺ غير متاحة لي في هذا البحث المتواضع، فحسبي ألا أُحرم من فضل إيراد نماذج منه، تكون بذرة بإذن الله لبحوث تنصب على جمع الدعاء الصحيح وتصنيفه ودراسته، بالإضافة إلى المصنفات السابقة في هذا المجال.

وبالنظر إلى المعاني العامة لأدعيته ﷺ يمكن تصنيفها إلى خمسة محاور: دعاء الحمد، ودعاء الرحمة وللاستغفار، ودعاء الاستعاذة، ودعاء التسليم، ودعاء المسألة، مع تداخل وتزاوج في هذه المعاني.

المحور الأول: دعاء الحمد

الحمد هو الثناء، ومن معانيه المدح وهو أعم من الحمد، والشكر وهو أخص من الحمد. وأول كلمة نتلوها في القرآن الكريم بعد البسملة ﴿ الْحَمْدُ ﴾ بألف ولام الاستغراق للجنس، للتعبير عن اختصاص الله بالثناء والحمد وإثباته، فهو المحمود على كل ما هو في عالم الوجود والغيب، ولهذا يسبح بحمده كل ذرة في الكون، يقول تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ... ﴾(الإسراء:٤٤).

وكان ﷺ يحث المؤمن على حمد الله والثناء عليه في كل عمل يقوم به,

﴿ يقول مثلا: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لْيُصَلِّ

﴿ مَنْ قَالَ: لا : ثُمَّ لْيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ ﴾ ، ويقول عَلَى النَّبِيِّ
إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛
فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ
عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ
. ﴾ «يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ إِلا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ

ومن ذلك أيضا ما روى الترمذي في جامعه من حديث عبد الله بن مسعود
رضي الله عنه،

لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ، : ﴿ قال رسول الله
أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا
.قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ﴾

من هنا كان الحمد من أغزر الدلالات في دعائه، حيث يكاد لا يخلو
دعاء من دعائه من حمد الله وشكره والثناء عليه، ثم يدعو بعد ذلك بما يريد.
وفي هذا المحور نماذج من الأدعية التي يغلب عليها معاني الحمد، من
:ذلك

﴿ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، :في قيام الليل قوله
وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ،
وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ
تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ
فهنا مثلا رغم .وَأَخَّرْتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ ﴾
المزاوجة بين معاني

عدة، إلا أن الطابع العام الذي يغلب عليه هو حمد الله وشكره
.والاستسلام له

ويدعو ﷺ عند قيامه من الركوع بقوله: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءُ الأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ».

وعنه ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ، فَلَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ».

ويقول ﷺ في نموذج آخر: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَانِي وَآوَانِي وَأَطْعَمَنِي وَسَقَانِي، وَالَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، وَالَّذِي أَعْطَانِي فَأَجْزَلَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، اللَّهُمَّ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ وَإِلَهَ كُلِّ شَيْءٍ أَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ».

ومن دعائه ﷺ في عرفة: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَالَّذِي نَقُولُ وَخَيْرًا مِمَّا نَقُولُ، اللَّهُمَّ لَكَ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي، وَإِلَيْكَ مَآبِي، وَلَكَ رَبِّ تُرَاثِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَوَسْوَسَةِ الصَّدْرِ وَشَتَاتِ الأَمْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَجِيءُ بِهِ الرِّيحُ».

كما كان ﷺ يقول عند الكرب: «لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ».

وصحّ عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ رَأَى مُبْتَلًى فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلاكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ الْبَلاءُ».

وقال ﷺ: ... «وَمَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ».

وكان ﷺ إذا آوى إلى فراشه يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى،

وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ ﴾ وإذا استيقظ قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾.

كل عمل يقوم به، وخاصة الدعاء، ومعاني الحمد التي يكاد يفتتح بها إذا داوم عليها المؤمن وجعلها مفتاحا لكل عمل، فإن ذلك يسلمه إلى السلام والطمأنينة والرضا، وينعكس كل هذا على سلوكه وعلاقاته وكل أعماله، فيأتي عطاؤه مباركا وقيِّما في حجم بركة الدعاء وقيمته.

المحور الثاني: دعاء الرحمة وللاستغفار

يقول تعالى :﴿ ...اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾
﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾
نوح:١٠-١٢

﴿ وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه، أن رسول الله قال: «وَاللَّهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» ﴾. وهذا الحديث يغني عن أي قول في قيمة استمطاره الرحمة منه تعالى وفي استغفاره له عز وجل, وهو المغفور له ابتداء، وفي نسج كل دعاء بمعاني طلب الرحمة والمغفرة.. وفيما يأتي نماذج من الأدعية التي تغلب عليها هذه المعاني:

﴿ يقول رسول الله » : سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ

مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ «﴾

يقول الشيخ القرضاوي معلقا على هذا الحديث في كتابه «المنتقى»:
«إنما كان سيد الاستغفار؛ لأنه يتضمن جملة من المعاني الربانية العميقة:
تضمن توحيد الربوبية «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي» وتوحيد الإلهية «لا إِلَهَ إلا أَنْتَ»، والإقرار بالخالقية والعبودية »خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ»، والمبايعة لله على الوفاء «وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ»،

والبراءة من المعصية والاستعاذة بالله منها «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ»، والإقرار لله بالنعمة ,وعلى النفس بالذنب «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي»،

وطلب المغفرة ممن لا غفار غيره «فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أَنْتَ»، وما أحوج المسلم أن يودع بها مساءه ,ويستقبل بها صباحه . «

ويقول ﷺ في دعاء جامع :﴿ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ وكان نبي الله ﷺ إذا كَرَبَهُ أمرٌ قال: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ ﴾ .

﴿ وعن ابْنِ عَبَّاسٍ ، رضي الله عنهما، قَالَ سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَيْلَةً حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ ...﴾

﴿ وكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمْسَى قَالَ: «أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ أُرَاهُ قَالَ فِيهِنَّ: لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ.. وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ «﴾ .

﴿ وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَقُولُ: بِسْمِ اللَّهِ، وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ ﴾ وَإِذَا خَرَجَ قَالَ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ، وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ ﴾ .

﴿ ويَقُولُ فِيمَا بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاجْبُرْنِي، وَارْفَعْنِي، وَارْزُقْنِي، وَاهْدِنِي ﴾

﴿ ويوصي من يكثر لغطه بقوله ﷺ : مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ ﴾ .

ونظرة على دلالات هذه الأدعية وغيرها التي تدخل في مجال طلب الرحمة والمغفرة من الله عز وجل يجد أنها تحمل في أعماقها بذرات محفزة على متابعة المؤمن للطريق الموصلة إلى الله تعالى، ودافعة له على مداومة التوبة والوقوف مع نفسه مرات ومرات من أجل محاسبتها والاستغفار لها.

المحور الثالث: دعاء الاستعاذة

كان ﷺ يستعين في كل أعماله بالله عز وجل، ويستعيذ به من فساد هذه الأعمال أو بطلانها، كما كان يدعوه ليجنبه كل شر مادي أو معنوي، وهذه نماذج من الأدعية التي كان يستعيذ بالله من خلالها:

وعن أبي هُرَيْرَة ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشِّقَاقِ، وَالنِّفَاقِ، وَسُوءِ الأَخْلاقِ » وعَنْ عَائِشَةَ ، رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.**

وكان إذا خرج من بيته يقول: اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ.

ومن أدعيته ﷺ عند النوم: رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ.

وكان يقول عند دخوله الخلاء: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ ، وإذا خرج يقول: غُفْرَانَكَ. وكان ﷺ يقول حين يدخل السوق: «باسم الله، اللهم إني أسألك من خير هذه السوق وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة».

ومثل هذه الأدعية تضفي على الداعي طمأنينة، وتجعله يمارس كل أعماله دون خشية من تعثر أو كبوات؛ لأنه يكون قد سلم ما يقوم به لله فيحفظه ويرعاه

.

المحور الرابع: دعاء التسليم

كان رسول الله ﷺ يُسلم أمره كله لله، ويتوكل عليه في كل شيء، ويطلب منه تعالى أن يقبله عنده ,

وصدق الله العظيم حين قال :﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ الأنعام:١٦٢-١٦٣

وهذه نماذج من الأدعية التي يسلم فيها رسول الله ﷺ نفسه وكيانه لله ويدعو المسلم لذلك :

﴿ يقول ﷺ في ركوعه: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي »﴾ ﴿ ويقول في سجوده: اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ؛ ﴿ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلانِيَتَهُ وَسِرَّهُ ﴾ .

﴿ وعنه ﷺ قال طالبا من المؤمن رفع شهاداته لله، وإشهاد الوجود على ذلك، مسلما بألوهيته سبحانه وربوبيته: مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ يُمْسِي : اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، أَعْتَقَ اللَّهُ رُبُعَهُ مِنَ النَّارِ، فَمَنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَعْتَقَ اللَّهُ نِصْفَهُ، وَمَنْ قَالَهَا ثَلاثًا أَعْتَقَ اللَّهُ ثَلاثَةَ أَرْبَاعِهِ، فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا أَعْتَقَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ .

﴿ وكان يقول عند نومه: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ ﴾

المحور الخامس: دعاء المسألة

لم يكن ﷺ يستنكف من الإلحاح في سؤال الله عز وجل، وطلب العون والمدد منه في جميع الأحوال وفي كل الأشياء، ومن نماذج ذلك هذه الأدعية:

-﴿ يقول ﷺ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى ﴾ .

-﴿ ويقول ﷺ: مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

-وعنه ﷺ: ﴿ اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ ﴾

-﴿ وكان يقول: اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي ﴾ .

-﴿ ويسأل الله الثبات، فيقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ﴾ .

﴿ وعَنْ عَائِشَـةَ ، رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضًا أَوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ : أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا ﴾ .

﴿ وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ :اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي.. قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ ﴾

-﴿ وكان يقول في دعاء القنوت: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ ﴾ .

-

﴿ وكان يَقُولُ خَلْفَ الصَّلاةِ : «لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ «﴾ .

-﴿ وكان ﷺ يقول: « اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ «﴾ .

-وإذا خرج لسفر واستوى على بعيره كبر ثلاثا ودعا :﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي

سَفَرِنَا هـَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هـوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هـَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالأَهْلِ.. وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ ﴾ وهناك حوادث تجري خارج إرادة الإنسان وتكون ذات علاقة غير مباشرة معه، من مثل حدوث القحط أو المجاعة أو الحريق أو انتشار آفة أو غير ذلك من الحوادث، التي لا تكون مرتبطة مباشرة بالفرد، إلا أنها تؤثر فيه سلبا بطريق غير مباشر، وكان للرسول ﷺ أدعية يتوجه فيها إلى ربه في مثل هـذه الأمور والآفات، ملحا في السؤال لتجنيبه أضرار ذلك مثل قوله، عليه السلام :﴿ مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا ﴾ .

﴿ وكان ﷺ إذا رأى الهلال قال: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالأَمْنِ وَالإِيمَانِ، وَالسَّلامَةِ وَالإِسْلامِ، وَالتَّوْفِيقِ لِمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، رَبُّنَا وَرَبُّكَ اللَّهُ ﴾ .

﴿ وفي دعاء يجمع بين هـذه الدلالات كلها قوله ﷺ يوم الأحزاب عن ابن عمر ، رضي الله عنهما» :اللهم إني أعوذ بنور قدسك، وعظمة طهارتك، وبركة جلالك، من كل آفة وعاهة، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن، أنت غياثي فبك أغوث، وأنت ملاذي فبك ألوذ، وأنت عياذي فبك أعوذ، يا من ذلَّت له رقاب الجبابرة، وخضعتْ له أعناق الفراعنة، أعوذ بك من خزيك وكشف سترك ومن نسيان ذكرك والانصراف عن شكرك، أنا في حرزك ليلي ونهاري ونومي وقراري وظعني وأسفاري، ذكرك شعاري، وثناؤك دثاري، لا إله إلا أنت، تعظيما لوجهك وتكريما لسبحاتك، أجرني من خزيك ومن شر عبادك، واضرب عليّ سُرادقات حفظك، وأَدخلني في حفظ عنايتك، وعُد لي بخير منك يا أرحم الراحمين، يا ذا الجلال والإكرام «﴾ .

هذه الأدعية كلها، وغيرها، تعبير عن مدى حاجة الإنسان لله عز وجل ولعونه، ولا شك أن قراءتها في ساعات الليل البهيم أو ساعات النهار، تحمل معاني كثيرة، وتجعل القلب يطمئن بمعية الله تعالى ويأنس بقربه، كما أن المداومة عليها تعطي الداعي القوة، وتمنحه القدرة على الإنجاز والعطاء ,وعلى التحمل.

جمالية الدعاء

إن تنمية الذوق الجمالي عند المسلم بعدٌ تربوي إسلامي عظيم، نجد أسسه مبثوثة في مختلف النصوص القرآنية،
في مثل قوله الله تعالى :﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الكهف:٧،

وقوله :﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ق:٦-٧،

وغير ذلك من النصوص التي تتحدث عن مظاهر الجمال والزينة، وتلفت نظر الإنسان باستمرار إلى ما في الكون والوجود من آيات الجمال والروعة والفن والإبداع والإتقان، وتقوم شاهدة بجلاء على قدرة الله وعظمته وحسن صنعته، كما تزرع في نفسه بذور الإتقان والجمال وسمو الذوق، التي تنمو وتترعرع في أنماط السلوك والعلاقات، وتنفتح على آفاق الجمال في الكون، وتشد قلبه وعقله ووجدانه إلى الله تعالى مبدع الخلق والجمال في هذا الوجود .
وبذلك تكون التربية الجمالية، من معالم الطريق إلى معرفة الله تعالى، كما أنها تصبح مكونا جوهريّا من مكونات الكيان الإنساني، ومفسحة له المجال للترقي الحضاري، يقول مالك بن نبي ، رحمه الله، في هذا المجال:
«الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو

الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة «، وبدون الإحساس الجمالي وتنمية الذوق والجمال تصبح الحياة جافة وقاحلة، ويفقد الإنسان عنصرا مهما من عناصر الحياة الطيبة، ويتخلى عن قيمة عليا من القيم التي تحكم علاقاته وتوجه سلوكياته، ويخسر الرغبة المتجددة في تحقيق الدقة والإتقان والكمال في أعماله التي تبعده عن الارتجال والفوضى والتعجل والسطحية والإهمال.

ومن أبرز المظاهر الجمالية التي تشهد لله تعالى بالعظمة والجلال، وتفتح الآفاق النفسية والعقلية والوجدانية لدى الانسان، وتحفزه على التربية الجمالية وتنمية الذوق، جمال الخلقة البشرية ذاتها،

يقول تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ الانفطار:٦-٨.

ويقول في آية أخرى :﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التين:٤ .

كما تتجلى هذه المظاهر بصورة جلية في الكون الذي يشكّل لوحات فنية أخّاذة، بكل ما فيه من تناسق وروعة وجمال، ومصدرا طبيعيا ساحرا للإلهام الفني والجمالي وتربية الحس والذوق والمشاعر وتهذيبها،

يقول تعالى :﴿ ...وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ... ﴾ النمل:٦٠. ومثل هذه النصوص تبرز قيمة الجمال، وتدعونا إلى التنعم بهذه النعم العظيمة والتأمل في قدرة الله تعالى من خلالها.

وتطبيع الإنسان على ضرورة البحث عن الجمال والتحلي به وتذوقه والتنعم به يربط المتعة الروحية والمادية بالحاجة الإنسانية، ويجعل الجميل يتضمن بالضرورة النافع ولا يتناقض معه،

يقول تعالى :﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ

فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الرعد:٤،

ويقول تعالى :﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾
النحل:٦..
آيات رائعة تكشف عن العلاقة الوثيقة بين المنفعة والجمال.. ويقول تعالى هاديا إلى تذوق جمال النعمة المرتبطة بمنفعة الحمد:

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ...﴾ الكهف:٣٩

وتنمية الإحساس الجمالي في حد ذاته لدى الإنسان المؤمن هو تنمية للملكات والطاقات، التي أنعم الله تعالى بها عليه، وفي استخدام هذه الملكات سبلا للاستمتاع بما خلق الله في الكون والإنسان من آيات الزينة والجمال، وبالتالي شكره تعالى على نعمة خلقه لها. فالمسلم لن يستطيع أداء فريضة الشكر لله على نعمة الجمال إلا إذا عرفها واستمتع بها، من خلال التأمل والتذوق والحرص على منهاج الله، بعبادته من خلال ما يحبه ويرضاه، الأمر الذي ينعكس على شخصية الإنسان وسلوكياته. وأول شروط تذوق الجمال هو تحقق البعد الأخلاقي؛ لأن تصور الإسلام عن الجمال يقوم على المبدأ الأخلاقي، والقيمة الجمالية لا تنفصل عن القيم الأخلاقية .
وتتضح أهمية القيم الجمالية وارتباطها بالأخلاق، وتنمية الذوق لدى الإنسان في السيرة النبوية، فقد كان ﷺ تجسيدا حيا ومثلا إنسانيا راقيا في الأناقة والجمال وسمو الذوق، في أفعاله وأقواله وعلاقاته. فحين يقول ﷺ مثبتا القاعدة الجمالية العامة في الإسلام :

﴿ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ «﴾ ، فإن ذلك ينسحب على الجمال الظاهر والجمال الباطن،

﴿ ويقول » : ﷺ اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي «﴾ .

إنه كان يعرف ربه بصفات الجمال، ويدرك ضرورة التعرف إلى حقيقة الجمال الإلهي وتجلياته في الكون والنفس، وتعويد النفس على رؤيته والانغماس فيه وتذوق لذته. فنجده ﷺ يتعرف إليه تعالى بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، ويُجَمِّل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بالطهارة، ويحث على التحلي بمظهر وسلوكيات الجمال من منطلق جمال الله تعالى الذي يحب الجمال. من هنا كانت سيرته ﷺ تجسيدا لجمال المظهر وجمال الجوهر ونظافتهما. وكان الاقتداء به ﷺ تربية في الجمال والأخلاق والنظافة؛

لأن نظافة الشكل مدعاة لنظافة الضمير، ونظافة الفرد مدعاة لنظافة المجتمع. وبذلك يتحقق بعد تربوي إسلامي عظيم متمثل في طهارة المجتمع المسلم طهارة معنوية من الفواحش والمعاصي والذنوب والآثام، فترتفع النفس المسلمة من رجس الفوضى وأوحال الوحشية إلى نظافة الأخلاق وتهذيب السلوك وجماليته. ومن ثم يتم تطهير الحياة الاجتماعية عامة حتى تصبح التربية شاملة للنفس والعقل والجسم بتطهير النية والعمل والسلوك وتجميلها.

ولعل بعدنا في واقعنا المعاصر عن هذا المفهوم الحقيقي للجمال وتجلياته ينبع من عدم تمثلنا للارتباط بين الجمال والأخلاق والنظافة في ديننا، وعدم ترسيخها في الفرد والمجتمع بوصفها قيما مركزية تضبط السلوك، وتوجه الممارسة، ومن ضمنها الدعاء.

من هنا نجد ما للدعاء من فاعلية كبيرة في تنمية الذوق الجمالي، وإخصاب النفس بتجليات الجمال الإلهي؛ لأن البث الروحي الذي يخلقه الدعاء يفيض بعبقات الحب والمتعة، والشعور بالرضى والسعادة، فيرتقي الإنسان في درجات من الجمال والصفاء النفسي، التي تنعكس على شخصيته وسلوكه. وهذه الرؤية الشمولية للجمال ومظاهره وتجلياته التي نلمسها في معاني الدعاء القرآني والحديثي ومضامينه الداخلية، تنسحب على بنيته الفنية الخارجية أيضا، وتحمل رسائل إيحائية متعددة بتعدد الداعي، ودرجات تمثله لتناسق ووحدة الشكل والمعنى.

وبذلك يقدم النص الدُّعائي جماليته في ضوء انفتـاحه على عالم لا متناهٍ من الدلالات وأشكالها التعبيرية، القـادرة على احتواء انفعالات الداعي المتباينة، وتوجيه فكره إلى ما فيه صـلاح نفسه واطمئنانها. وبما أن الدعاء حركات لفظية مباشرة تسعى للانتظام في النفس بما تحمله من دلالات وإيحاءات، فإنها تظل مشـدودة في وظيفتـها إلى الرؤية الـكلية المتمثلة في ألفاظ الدعاء وتراكيب جمله وصوره البلاغية، التي تموج بشحنات عاطفية عـالية تقوم على الابتهال والاستعطاف، وتعبر عن الوظيفة النفسية والحاجة الاجتماعية .

والعلاقة الفنية بين أسلوب نص الدعاء ودلالاته وأهدافه تشهد بجمالية السبك ورونقه، وبلاغته الإعجازية التي بمقدار ما تمتع الداعي جماليا، تحقق لديه نَشْوة عاطفية عالية، وتأملا فكريا عريضا. وهذه نماذج من الأدعية التي وردت في القرآن الكريم وفي السنة النبوية تكشف عن فاعليتها في النفس، سواء من خلال إشاعتها للجمال، أو من خلال جماليتها في حد ذاتها:

١- النصوص القرآنية

يختص القرآن الكريم بصفات جمالية وبلاغية معجزة متنوعة في جميع آياته وسورة ، من مثل الجمع والإيجاز والتناسق وغير ذلك مما لا يُعدّ حصره.. ونصوص الدعاء من الآيات القرآنية، التي يمكن استنباط بعض هـذه الصفات منها، ورصد بعض سماتها في نماذج تمثلها، وتقوم شاهدة عليها كثيرة، من ذلك هـذه النماذج:

-﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، هـذا الدعاء يتردد في حياة المسلم، في يومه ونهاره، حيث لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب المتضمنة له، فبعد الإقرار بالانقطاع المطلق لله جل وعلا بقول:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ،

يأتي الدعاء بطلب الهداية في جملة واحدة قصيرة، تثير ملامح الجمال بتركيبها الجامع الموجز. وهي جملة فعلية تفيد عدم الثبات والاستقرار؛ لأن

الإنسان بطبعه مجبول على الخطأ والنسيان، والانحراف عن الطريق القويم وعدم الثبات عليه، من هنا جاء طلب الهداية إلى الصراط المستقيم، لتنبيه القارئ الداعي إلى المزالق والأخطاء التي تحف طريقه، فيحاول الرجوع عنها وعدم الوقوع فيها، بتجدد الدعوة اليومية في كل صلاة

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ . ونستطيع القول: بأن هذا الدعاء يعبر عن أقصى درجات الإيجاز والاختصار التي يُدلّ بها بالألفاظ القليلة عن المعاني الكثيرة، ويمثل مجموعة كبيرة من الأدعية القرآنية في مثل قوله تعالى:

﴿ ...رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ الأعراف:١٢٦،

فجملة ﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ من العبارات الموجزة البليغة التي تختصر كلاما كثيرا في مجالات الصبر المتعددة، وتدل على المبالغة في طلبه، كما تشير إلى صورة جمالية فيها استعارة تمزج اللفظ بالكثير من المعاني .

-يقول تعالى في دعاء جامع :﴿ ...رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة:٢٨٦

وفي شرح الآية قال الطبراني وابن حبان ، عن عطاء عن عبيد بن عمير ﴿ عن ابن عباس ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ : »إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ« ﴾

فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ :﴿ ...هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... ﴾ الحج:٧٨،

وَقَالَ :﴿ ...يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ...﴾ البقرة:١٨٥،

وَقَالَ :﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ...﴾ التغابن:١٦ .

وهذا مجال واسع من مجالات التَّيْسِير فِي الدِّين فيه من الفوائد الكثيرة والصور البديعة ما يجعله يصل إلى النفس، ويمنحها الأمن والاطمئنان. ويدخل في هذا الباب أدعية أخرى جامعة تُحمل على المجاز والاستعارة، وتقدم صورا جمالية تتمكن من النفس وتتغلغل فيها، لما تشعه من مقاصد دلالية عميقة الإبلاغ والتأثير والإثارة،
كما في قوله تعالى:

﴿ ...رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي،وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي،وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي،يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ طه:٢٥-٢٨.

ومن الأدعية الجامعة التي تمثل ما ينطوي عليه الدعاء القرآني من أسلوب في منتهى الجمال والبهاء، وما يحتويه من بلاغة لفظية وصوتية تتناغم في النفس الإنسانية، وتعبر عن قيمها، وما يعتريها من أحوال وتحولات،

قوله تعالى :﴿ ...رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ البقرة:٢٠١

ولا يخفى ما في الآية من تجانس تام بين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، ومن مطابقة وتقابل بين الدنيا والآخرة تترك في نفس الداعي أثرا بليغا، وتثير لديه حافزا لبلوغ دلالات ومقاصد هذه الحسنة .

وأمثلة ذلك كثيرة، منها التجانس المختلف في الوزن والتركيب الذي يضفي على الدعاء أنواعا من اللطف والجمال تتردد في النفس في مثل قوله

تعالى:

﴿ ...رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ المؤمنون:٢٩،

وقوله عز وجل في دعاء ينضح بالتفاؤل والابتهال والتضرع، وتنساب عباراته المركزة انسيابا عميقا في النفس :

﴿ ...رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ المؤمنون:١٠٩

فبالإضافة إلى التجانس غير التام بين ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ و ﴿ الرَّاحِمِينَ ﴾ توافقت الفواصل وتوحدت في حرف نون الجماعة الممتد في الزمن، لاكتساب دلالات الوحدة والانتماء للجماعة، وترددت لتستقر في النفس، وتؤثر فيها .

ونختم هذه الجملة من النماذج بهذا الدعاء الجامع الذي يختصر العلاقة بين الله تعالى وعبده، علاقة التوبة والاستغفار والافتقار والرجاء والرحمة، في قوله تعالى على لسان يونس ، عليه السلام :﴿ ...لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الأنبياء:٨٧

وكثيرة هي الأدعية القرآنية، التي تجمع بين عمق المعاني وجلالها ورونق بيانها ودقته وبين انتظام ألفاظها وأصواتها وتناسقها الدالة على المعاني الواسعة والمتنوعة.

٢ـ النصوص الحديثية

إن رسول الله » ﷺ خير من حقق في نفسه، وفي الذين من حوله حياة الإنسان الكامل «، ولذلك كان في دعائه، كما في كل أعماله وعباداته، مثالا للافتقار إلى الله، والامتثال والاستسلام له عز وجل، ولطلب التوبة والمغفرة والعون منه. وتتوفر نصوص دعائه على جملة من الصفات والخصائص الجمالية والإبداعية التي لا يمكن أن تتوفر لغيره) ، يمكن التعرض لقطرات من فيض بيانها، وتكامل معانيها وألفاظها. وقد اختصر

ﷺ لجمالية نصوصه صفة ضمّنها حديثه، ﴿ فيما رواه سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ، رضي الله عنه، أنه قال: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي » ﴾ .

ورغم أن عددا من العلماء ذهبوا إلى اعتبار معنى «جَوَامِعِ الْكَلِمِ» هو القرآن، إلا أنه أيضا صفة بارزة من صفات حديثه ﷺ ، فقد «مُكِّن من الألفاظ المختصرة التي تدل على المعاني الغزيرة، ومن ينعم النظر في كلامه ﷺ يجد جل كلماته جارية هذا المجرى »، الأمر الذي يدل على إعجابه بجوامع الكلم، واختياره على غيره من الذكر ، كما كان يعجبه من الدعاء جوامعه،

﴿ فعَنْ عَائِشَةَ ، رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ وَيَدَعُ مَا سِوَى ذَلِكَ ﴾ ؛ ﴿ وعن عائشة ، رضي الله عنها، أيضًا أن النبي ﷺ قال لها: عَلَيْكِ بِالْكَوَامِلِ... قُولِي: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَأَسْتَعِيذُكَ مِمَّا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ، وَأَسْأَلُكَ مَا قَضَيْتَ لِي مِنْ أَمْرٍ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا ﴾ .

ومن نماذج جوامع كلمه في الدعاء ﴿ قوله ﷺ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ ﴾

فطلب الرحمة هنا يأتي بجمل قصيرة مركزة، ليشمل كل مناحي الحياة الروحية والمادية في صور واقعية ومجازية، بسيطة وعميقة، تتردد ملامحها في النفس، حينا بعد حين، مع كل فعل مضارع في الدعاء، وتؤكد اقتناع الداعي بسعة رحمة الله مع كل تكرار لـ«بها.«
وللشيخ الغزالي رحمه الله لفتة لطيفة في سمة التكرار التي تنسحب على معظم دعائه ﷺ يقول فيها: «إن ألفاظ اللغة حين تعجز عن ملاحقة هذا الجيشان المناسب في كل دعوة تجعل الرسول المنيب المتعبد يلجأ إلى التكرار في العبارة الواحدة لينفس عما استكنّ في صدره من روعة ومحبة وإجلال. إنه في ظاهره ترداد للفظ واحد، وهو في باطنه تعبير عن معان متجددة من الولاء والهيام . «
وبالإضافة إلى هذه المعاني، نجد في تكراره استمتاعا وتعظيما، استمتاعا بترديد الحمد والتنعم بما يشعه من رضى وقناعة وطمأنينة، وتعظيما بتكرار اسم من أسماء الله الحسنى وما يشعه من درجات القرب والمعية والمصاحبة. وفي هذا المجال نورد نموذجا رائعا تتكرر فيه ألفاظ معينة:

﴿ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ ﴾ .

ولا شك أن قراءة هذا الدعاء في ساعات الليل البهيم تحمل معاني كثيرة، فالسماء تظهر في الليل بكل عظمتها وبهائها، والنجوم تومض بهدوء وبكل جمال، وتنساب المعاني إلى القلب، الحي الذاكر، وتدخل الأرضُ في تناغم مع السماء في هذه الساعات، ويرتفع الحمد لله تعالى الذي خلق هذه السموات والأرض؛ ارتباط في جوف الليل بالله عز وجل خالق الكون يسكب السكينة في أعماق الداعي، ويضفي ملامح الجمال والجلال في كل ما يحيط به.

وفي دعاء ينضح بالجمال والروعة يقول ﷺ يعرض استسلامه وتسليم كل أمره لله تعالى قبل نومه:

﴿ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ ﴾

حروف تبرز تناسبها لبعضها تناسبا طبيعيا في الهمس والجهر والشدة واللين والتفخيم والترقيق مما يشكل أنغاما متناسقة متناسبة لطبيعة الاستسلام لله، كما أن الكلمات ونظمها والتئامها مع بعضها بعضا له الأثر الكبير في نفس الداعي، بما تحتويه من تفريغ لشحنات التعب والحزن ومختلف الهموم والمشكلات التي تراكمت طيلة اليوم، وتبعث على الطمأنينة والسلام، وتُلجئ إلى التوكل على الله تعالى في كل أمر من الأمور .

وترديد هذا الدعاء كل ليلة يكشف عن وعيه أن إغماضة عينيه عن الدنيا قد تكون الإغماضة الأخيرة، لذا يجب ألا يتمدد على فراشه غافلا، بل مدركا واعيا باستسلامه لله تعالى. وما أن يقوم من النوم حتى يجدد استسلامه لله مرة أخرى، وبذلك يبدأ ﷺ يوما آخر من حياته بهذا الاستسلام العميق لله تعالى وتفويض شأنه إليه:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ «﴾ .﴿ ويقول ﷺ: » أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الْيَوْمِ، فَتْحَهُ، وَنَصْرَهُ، وَنُورَهُ، وَبَرَكَتَهُ، وَهُدَاهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ «﴾ أدعية مدركة لابتلاءات الحياة وهمومها يزيدها التناسق والتناغم روعة وجمالا وتأثيرا.

﴿ وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ: «... أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ ﴾

، والدعاء جاء في جمل قصيرة مركزة جامعة للتعوذ من الشر المتمثل في مختلف المخلوقات المؤذية، مزاوجة بين كلماتها الأخيرة في الوزن والسجع والتجنيس.
وينحو هذا الدعاء المعنى نفسه،

﴿ فعن أبي هريرة ، رضي الله عنه، أن رسول الله كان يقول في سجوده: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلانِيَتَهُ وَسِرَّهُ »﴾

هنا بلاغة البديع من سجع وتجنيس وطباق بين كله ودقه وجله وبين آخره وسره، وطباق بين علانيته وسرّه ما يتضافر مع الصور الأدبية، ويضفي على الدعاء جمالية دلالية ولفظية وصوتية ما يفصح عن رغبته ﷺ في تطهير النفس من كل ما يعلق بها من ذنب، كيفما كان حجمه أو طبيعته أو توقيته.

ويدعونا الحبيب ﷺ إلى تلمس الجمال حتى في أحلك الأوقات، التي قد نعيشها في حياتنا اليومية مع الابتلاءات والمصائب والأحزان، وذلك من خلال الارتقاء بالنفس وجعلها تسعى لتذويب همومها ومشكلاتها بالانغماس في الجمال وتشربه، عبر الشعور بمعية الله وقربه، والإحساس بأن كل ما نعيشه هو دعوة مفتوحة للبحث عن ذنوبنا والاستغفار منها، أو هو رفع مستمر للدرجات، وتوفير فضاءات أكثر جمالا وروعة في جنات النعيم،

استمع إليه ﷺ في هديه للمسلمين لكل هذا في مثل قوله :﴿ مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ :﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إلا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا »﴾

.

﴿ وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»..

وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ﴾ .وهذا تحويل للنعمة أو المصيبة إلى عبادة مفعمة بالإحساس الجمالي.

الخاتمة

يقول تعالى :(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ...) الفرقان:٧٧،

كنت كلما قرأت هذه الآية الكريمة ينتابني نوع من الرهبة الممزوجة مع الشعور بالتقصير، وعدم إيلاء موضوع بحجم الدعاء وقيمته عند الله عز وجل الاهتمامَ الكافي في مساحة حياتنا الفانية، بوصفه زادا يطوي المسافات بين العبد وربه، ويجعله يلقاه وهو متزود بما يوصله إلى نهاية رحلته بأمان، ليخلد في جنات الرحمن، وخاصة حين وعيت أن الدعاء هنا جاء بمعنى العبادة، يقول ابن كثير ، رحمه الله، في شرح الآية:

«أَيْ لا يُبَالِي وَلا يَكْتَرِث بِكُمْ إِذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْق لِيَعْبُدُوهُ وَيُوَحِّدُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ بُكْرَة وَأَصِيلا . »

من هنا كان من واجبي القيام بالتذكير بقيمة الدعاء

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات:٥٥

عسى أن نوليه مكانته، ونخفف من وزن أجسادنا التثاقلية التي تخضع لجاذبية الأرض وعوامل الميل مع الشهوات والهوى والغفلة وغيرها،

يقول تعالى مبينا طبيعة الجسد الإنساني:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ التوبة:٣٨؛

وندخل في زمرة المتقين، يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف:٢٠١؛

ونتذكر في كل دعاء كرم الله تعالى اللانهائي للإنسان، وما يسبغ عليه من نعمه وإحسانه وفضله، التي يلمسها كل ثانية من حياته، من مثل نعمة البصر والسمع وغيرهما مما لا يُعد ولا يُحصى من النعم، التي لا غنى له عنها، ولا يطلبها، وإنما هي من كرم الله ونعمه.
وإذا كان ربُ العزة أكرم الإنسان بخطابه، وبحواره المستمر المتتالي كلما تلا القرآن وقرأه قراءة متبصرة، واستحق عن يقين اصطفاء الله تعالى له من دون سائر المخلوقات لتعمير الأرض والاستخلاف فيها،

يقول تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾
﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ الأحزاب:٤١-٤٣،

فإنه شرّفه بتيسير الدعاء والحمد والثناء عليه تعالى، وأدخله في مناجاة نورانية معه، يحاسب فيها نفسه، ويعرف مقامه وتقصيره في حقه سبحانه، ويسارع إلى التوبة والاستغفار والبكاء من خشيته تعالى، ويدعوه تضرعا وخفية بكلمات لا تصل إلى مقام عظمة وجلال الحق تعالى، الذي وصفه

النبي الأمين ﷺ بقوله :﴿ ...لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ «﴾ هذا الشرف، يجعله يعيش حياة الطمأنينة والأمن والسلام، ذلك

أن أساس الحياة الطيبة هـي التواصل مع الله والقرب منه، والإيمان به، والطمع في ثوابه، والخشية من غضبه وعقابه،

يقول تعالى:
﴿ ... فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾
﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ طه:١٢٣-١٢٤

والضنك هـو الضيق في كلّ شيء، وهو لازم لمن أعرض عن ذكر الله ودعائه، والإعراض يبعد القلب عن الهدوء، والنفس عن الطمأنينة، ويجعل الإنسان يعيش الانفلات من الرقابة الذاتية فلا كابح لشهواته ورغباته ونزواته،

فيكون هـمّه إشباعها بأيّ طريق أمكن دون النظر إلى الآثار الوخيمة المترتبة على ذلك في النفس أو في المجتمع، أما إذا لازم الذكر والدعاء فإن أثره ينسحب على حياته،
يقول تعالى : ﴿ ...أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد:٢٨

واطمئنان القلب يحقق التوازن داخل النفس الإنسانية، وهو أحد أعمدة الصحة النفسية التي تسهم مساهمة فعّالة في ارتقاء الإنسان نحو مدارج الكمال والمسيرة الصالحة، لذا يُعد الدعاء من أعظم وسائل الإصلاح النافعة، وهو السلاح المعطل عند الكثير، وقد فرطوا فيه وخسروه، إما جهلا أو قلة يقين بأثره.

يقول سبحانه وتعالى :﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ العصر:١-٣

.. فالفرد والمجتمع في خسران وقلق يلحقان جميع مقومات الحياة وميادينها، باستثناء من تكون المفاهيم والقيم الدينية الصحيحة هـي الحاكمة

على مسيرته وحركته؛ حيث تحرر تلك القيم الإنسان والمجتمع معا من جميع العبوديات الفكرية والاجتماعية والتربوية، وتزرع في الضمير وخلجات النفس وفي الواقع الاستقرار والطمأنينة التي هـي أساس الصحة النفسية والخلقية، وتدفع إلى العمل الإيجابي البناء نحو إصلاح وتغيير النفس والمجتمع، وإلى الإحساس الدائم بمعية الله والفقر إليه الذي يحققهما ملازمة الدعاء، إلا أن هـذا المفهوم والإحساس بالفقر المطلق إلى الله لا يقف عند الحد التعبدي، بل يجب أن تترشح منه آثار ومردودات أخلاقية، تسهم في تنـزيلها إلى أرض الواقع سلوكا وممارسة ومواقف .

يقول النورسي » :لقد زيَّن الله سبحانه هـذا الإنسان الصغير بحواس ومشاعر كثيرة جدا ,وحمَّله بجوارح وأجهزة وأعضاء مختلفة عديدة، ليشعره طبقات رحمته الواسعة ,ويذيقه أنواع آلائه التي لا تُعد، ويُعرفه أقسام إحساناته التي لا تُحصى ,ويُطلعه عبر تلك الأجهزة والأعضاء الكثيرة على أنواع تجلياته التي لا تُحد لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويحببها إليه، ويجعله يحسن تقديرها حق قدرها.

فالفرد والمجتمع في خسران وقلق يلحقان جميع مقومات الحياة وميادينها، باستثناء من تكون المفاهيم والقيم الدينية الصحيحة هـي الحاكمة على مسيرته وحركته؛ حيث تحرر تلك القيم الإنسان والمجتمع معا من جميع العبوديات الفكرية والاجتماعية والتربوية، وتزرع في الضمير وخلجات النفس وفي الواقع الاستقرار والطمأنينة التي هـي أساس الصحة النفسية والخلقية، وتدفع إلى العمل الإيجابي البناء نحو إصلاح وتغيير النفس والمجتمع، وإلى الإحساس الدائم بمعية الله والفقر إليه الذي يحققهما ملازمة الدعاء، إلا أن هـذا المفهوم والإحساس بالفقر المطلق إلى الله لا يقف عند الحد التعبدي، بل يجب أن تترشح منه آثار ومردودات أخلاقية، تسهم في تنـزيلها إلى أرض الواقع سلوكا وممارسة ومواقف .

وله أيضا كلمات لطيفة تدور حول المعاني السابقة فيقول : أتحسبون أن مهمة حياتكم محصورة في تلبية متطلبات النفس الأمارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعا لشهوة البطن والفرج؟؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متحسسة، إنما هـي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هـذه الحياة

الفانية؟؟ » ويجيب: «كلا، بل إن خلق تلك اللطائف والحواس والمشاعر في وجودكم وإدراجها في فطرتكم إنما يستند إلى **أساسين اثنين:**

أولـهما أن تجعلكم تستشعرون بالشكر تجاه نوع من أنواع النعم التي أسبغها عليكم المنعم سبحانه. أي عليكم الشعور بها والقيام بشكره تعالى وعبادته.

وثانيهما أن تجعلكم تعرفون أقسام تجليات الأسماء الحسنى التي تعمُّ الوجود كله، معرفتها وتذوقها فردا فردا. أي عليكم الإيمان بتلك الأسماء ومعرفتها معرفة ذوقية خالصة. وعلى هذين الأساسين تنمو الكمالات الإنسانية وبهما يغدو الإنسان إنسانا حقا . «
ولتربية المسلم على كل هذه المعاني، وإعادة بناء شخصيته في ضوئها، يجب تزويده بالنماذج الفاعلة والإيجابية التي تنتمي إلى حضارته وأمته، من أجل حمايته من الازدواجية أو الانفصام في التكوين ,قبل الانفتاح على أي نماذج أخرى. وأكْمل نموذج يمكن التزود منه هو رسول الله , ﷺ بتمثل سيرته النبوية العطرة،
يقول تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ آل عمران:٣١

وحين نستوعب حقيقة الإيمان والقرب منه تعالى، وارتباط التصور العقدي والأخلاق بالحياة والممارسة، والتوازن بين متطلبات الجسد وأشواق الروح، نزداد يقينا بعظمة الرسالة الحضارية التي نملكها، وبضرورة تصديرها للبشرية لإنقاذها من كل ما تعيشه من أزمات خانقة، سواء على مستوى التصور أو على مستوى الأخلاق؛

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء:١٠٧،
وجمال وجلال الزاد الذي نتزود منه خلال رحلتنا نحو الخلود.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصدر

http://www.sheikhali-waqfia.org.qa/SF/AR/BookShow/BookShowTree.aspx?BookId=107